الباب الأول

الكتابة فى العصر الجاهلى

الفصل الأول

انتشار الكتابة بين العرب فى العصر الجاهلى

نشأة الخط العربى وتطوره :

أصل الخط العربى مشكلة كانت مستعصية تتأرجح حولها الآراء ولا تكاد تستقرّ. وللعرب القدامى فى ذلك روايات مختلفة ، وللمستشرقين المحدثين آراء متباينة ، لا يعنينا منها جميعاً إلا هذه الإشارة العابرة إليها[1] . فسواء عندنا فى هذا البحث ،

---

(١) انظر أصل الخط العربى فى :

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان: ٤٧٦ — ٤٧٧ .

(٢) ابن أبى داود السجستانى ، كتاب المصاحف: ٤ — ٥

(٣) ابن عبد ربه ، العقد ٤ : ٢٤٠ وما بعدها .

(٤) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب: ١ ، ١٢ — ١٤

(٥) الصولى ، أدب الكتاب: ٢٨ — ٣٠

(٦) ابن فارس ، الصاحبى فى فقه اللغة ص ٧ وما بعدها .

(٧) حمزة بن الحسن الأصفهانى ، التنبيه على حدوث التصحيف (مصورة فوتوغرافية) أدب تيمور ٨٩٦، ص ٢٠ — ٣٥ .

(٨) القلقشندى ، صبح الأعشى ٣ : ١١ وما بعدها . وغيرها كثير .

أما من كتب من المحدثين فى ذلك فنهم :

(٩) الكتانى ، التراتيب الإدارية ص ١١٤ وما بعدها — المطبعة الأهلية بالرباط سنة ١٣٤٦ .

(١٠) ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية: ١٦١ — ٢٠٦ .

(١١) خليل يحيى نامى ، أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام - مجلة كلية الآداب مايو ١٩٣٥ =

أن يكون الخط العربى توقيفاً علّمه اللهُ آدم ثم أصابه إسماعيل بعد الطوفان[١]، — وأن يكون اختراعاً أخذته العرب عن الحيرة، والحيرة أخذته عن الأنبار، والأنبار أخذته عن اليمن[٢]، أو أخذته عن العرب العاربة الذين نزلوا فى أرض عدنان[٣]، — وأن يكون مشتقّاً من الخط الآرامى كما كان يذهب بعض المستشرقين[٤]، أو مشتقّاً من الخط النبطى كما يذهب المستشرقون اليوم، وهو أرجح الآراء عند الباحثين فى هذا الموضوع.

فأصل الخط العربى إذن مرحلة سابقة لبحثنا هذا متقدمة عليه فى الزمن، لا نحب أن نفصلّ فى تيهها، ونبعد بذلك عن موضوع بحثنا. وإنما الذى يعنينا من كل ذلك أن نصل إلى معرفة أمرين؛ الأول: صورة الحروف التى كان يكتب بها عرب الجاهلية الأخيرة؛ والثانى: أقصى زمن نستطيع أن نؤرخ به وجود الكتابة العربية فى الجاهلية بهذه الحروف التى عرفنا صورها. وسبيلنا إلى معرفة هذين الأمرين أن نتتبع النقوش العربية الجاهلية التى اكتُشفت حتى الآن، ونستقرئها فلعل فيها الخبر اليقين.

وتفصيل ذلك أن المنقبين من المستشرقين قد عثروا على نقوش عربية شمالية: ثمودية ولحيانية ونبطية كثيرة. ولا يعنينا منها هنا إلا النقوش النبطية وحدها.

= (١٢) إبراهيم جمعة، قصة الكتابة العربية، رقم ٥٣ من سلسلة اقرأ.

(١٣) طه باقر، أصل الحروف الهجائية — مجلة سومر ١٩٤٥ ص ٥٦ — ٦٠

(١٤) ناصر النقشبندى، منشأ الخط العربى وتطوره لغاية عهد الخلفاء الراشدين — مجلة سومر — كانون الثانى ١٩٤٧ ص ١٢٩ — ١٤٢.

(١٥) جواد على، تاريخ العرب قبل الإسلام ١ : ١٨٦ ومابعدها ؛ ٣ : ٤٣٦ ومابعدها.

(١٦) بلاشير، تاريخ الأدب العربى ص : ٧٠ — ٧٦.

(١٧) N. Abbott, The Rise of The North Arabic Script..., Chicago 1939

(١) ابن فارس، الصاحبى: ٧.

(٢) ابن النديم، الفهرست: ٦ — ٧، والصولى، أدب الكتاب: ٣٠، والقاموس (جزم)

(٣) الفهرست: ٦.

(٤) ولفنسون، تاريخ اللغات السامية: ١٧١.

ونستطيع – بعدما بذله العلماء المختصون فى الكشف عنها وقراءة حروفها – أن ندرسها دراسة توضح بعض الغموض الذى غشّى تاريخ الكتابة العربية فى الجاهلية . ولن نتعرض فى دراستنا للجوانب اللغوية ، ولكننا سنقصر حديثنا على الجانب الخطّىّ المتصل بصورة الحروف وأشكالها . وقد رأيت أن أقسم هذه النقوش إلى ثلاث مجموعات تتدرج تدرجاً تاريخيّاً . فالمجموعة الأولى هى نقوش القرن الثالث الميلادى ؛ والمجموعة الثانية : نقوش القرن الرابع ؛ والمجموعة الثالثة : نقوش القرن السادس .

وقد أهملت الإشارة إلى النقوش المؤرخة قبل القرن الثالث لأننى – بعد دراستى لها بالقدر الذى أستطيعه – لم أجد فيها من الكلمات الكاملة ما تتفق صورةُ حروفها فى الخطّ مع الخط العربى الإسلامى ؛ وإن كان فيها من الحروف المفردة المنفصلة ما يتفق مع حروف الخط العربى ، أو ما يصح أن يكون أصلاً تطورت عنه هذه الحروف لقرب الشبه بينهما .

١ – نقوش القرن الثالث الميلادى :

وهى خمسة ، وقد جمعتها فى ضرب واحد معاً لأننى رأيت أن الكلمات التى تشبه صورةُ حروفها فى الخط صورةَ كلمات اللغة العربية قليلةٌ جدًّا تتراوح فى النقش الواحد بين كلمة وثلاث كلمات . وهذه النقوش جميعها لا تتصل بموضوعنا إلا من حيث هى تمهيد لنقوش المجموعتين التاليتين ، وربما كانت أصلاً لهما .

(ا) فالنقش الأول مؤرخ سنة ١٠٦ من سقوط سلع ، أى سنة ٢١٠ للميلاد . وقد اكتشف فى وادى المكتب فى شبه جزيرة طورسينا . وكلماته التى تشبه صورتها صورة كلمات اللغة العربية هى : « بن » (الكلمة الرابعة فى السطر الأول) و « يعلى » (الكلمة الخامسة فى السطر الأول كذلك) .

(ب) والنقش الثانى مؤرخ سنة ١٢٦ من سقوط سلع ، أى سنة ٢٣٠ للميلاد . وقد اكتشف فى وادى فران فى شبه جزيرة طور سينا كذلك . وكلماته

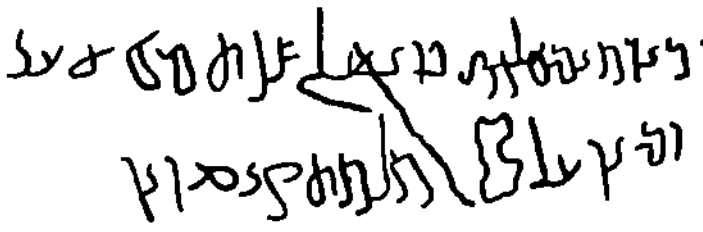

رقم (١) نقش وادى المكتب

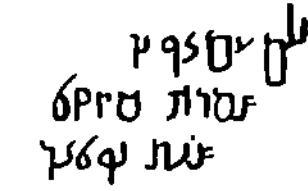

رقم (٢) نقش وادى فران

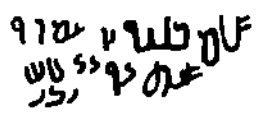

رقم (٣) نقش طور سينا

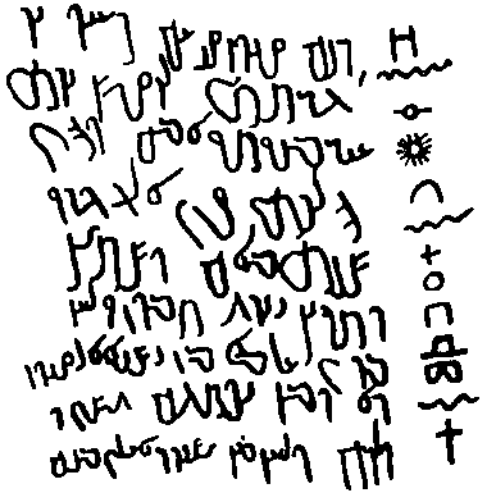

رقم (٤) نقش مدائن صالح

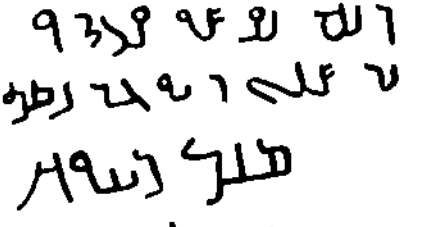

رقم (٥) نقش أم الجمال

التى تعنينا هى : « سلم » أو « سلام » (الكلمة الأولى فى السطر الأول) و « بن » (الكلمة الأخيرة فى السطر نفسه) .

(حـ) والنقش الثالث وُجد كذلك فى طور سينا ، وتاريخه سنة ١٤٨ من سقوط سلع ، أى فى سنة ٢٥٣ للميلاد . وكلماته هى « كلب » (الكلمة الثانية فى السطر الأول) « وبن عمرو » (الكلمتان الأخيرتان فى السطر نفسه) .

(د) نقش اكتشف فى الحجر (مدائن صالح) وتاريخه سنة ١٦٢ من سقوط سلع ، أى سنة ٢٦٧ للميلاد . وكلماته هى « بن » (الكلمة الأخيرة فى السطر الأول) و « عبد » (الكلمة الأولى فى السطر الثالث) و « لعن » (الكلمة الأخيرة فى السطر السادس ، وكررت فى السطر التاسع — الكلمة الثانية) .

(هـ) والنقش الأخير من هذه المجموعة نقش اكتشف فى بلدة أم الجمال — فى حوران — وهو غير مؤرخ ، ولكن الكونت De Vogue وليمان يرجحان أن تاريخه سنة ٢٧٠ للميلاد . وكلماته هى : « سلى » — وهو اسم علم (الكلمة الثانية فى السطر الثانى) و « جذيمة » (الكلمة الأخيرة فى السطر نفسه) و « ملك » (الكلمة الأولى فى السطر الثالث) .

٢ — أما القرن الرابع الميلادى : فلم يُعثر فيه إلا على نقش واحد ، كشف فى مدفن امرئ القيس بن عمرو ملك العرب فى النمارة — وهى من أعمال حوران . وتاريخه سنة ٢٢٣ من سقوط سلع ، أى فى سنة ٣٢٨ للميلاد .

ولهذا النقش قيمة كبيرة فى بحث تاريخ الكتابة العربية ، وذلك أن كثيراً من كلماته ، بل ربما كانت جميع كلماته ، ذات صورة تشبه شبهاً كبيراً صورة الخط العربى الإسلامى ، وحسبنا أن نشير إلى بعضها :

السطر الأول : نفس مرالقيس بن عمرو ملك العرب (من الكلمة الثانية حتى السابعة) .

السطر الثانى : وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرب مذحجو (من الكلمة الأولى إلى السادسة) .

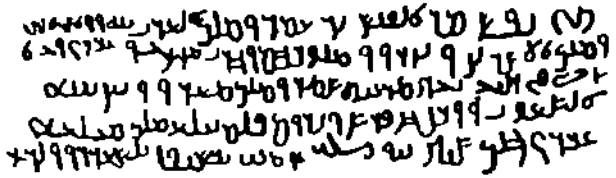

رقم (٦) نقش النمارة

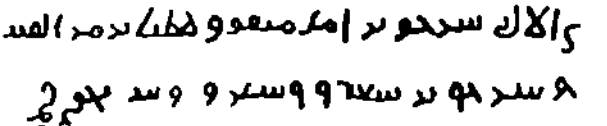

رقم (٧) نقش زبد

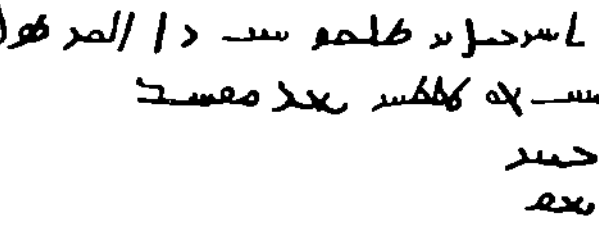

رقم (٨) نقش حران

السطر الرابع : الشعوب . . . فلم يبلغ ملك مبلغه (الكلمة الأولى ، ثم من الخامسة إلى آخر السطر) .

السطر الخامس: عكدى (أى فى القوة) هلك سنة (الكلمات الأولى والثانية والثالثة) .

فهذا نقش عربى بيّنُ العربية ، عربى فى أكثر لغته ، عربى فى صورة خطه . وهو فى مرحلة تاريخية تُظهر فى وضوح جلىّ تطور الخط العربى إذا ما قيس بالنقوش التى ذكرنا أنها ترجع إلى القرن الثالث الميلادى .

٣ ــ أما القرن السادس الميلادى : فقد اكتشف فيه نقشان :

أولهما : نقش وجد فى خربة زَبَّد ــ بين قنسرين ونهر الفرات ــ وتاريخه سنة ٥١١ للميلاد ؛ وعليه ثلاث كتابات : اليونانية والسريانية والعربية . وخطه قريب الشبه بالخط الكوفى الإسلامى ــ وإن كانت بعض كلماته ما زالت غير مقروءة ، وهى لا تعدو كلمة واحدة فى السطر الأول وكلمة أو كلمتين فى آخر السطر الثانى ؛ أما سائر كلماته فهى عربية الخط على اختلاف العلماء فى قراءتها. وهى :

السطر الأول : . . . الإله شرحو بر . . منذو و . . بر امرئ القيس

السطر الثانى : وشرحو بر سعدو وسترو وشريحو . . .

وثانيهما : نقش مؤرخ فى سنة ٤٦٣ من سقوط سلع أى سنة ٥٦٨ للميلاد . عليه كتابتان باليونانية والعربية . وقد وجد منقوشاً على حجر فوق باب كنيسة بحرّان اللجا فى المنطقة الشمالية من جبل الدروز ، وهذا النقش كما يلى :

السطر الأول : أنا شرحيل بن ظلمو بنيت هذا المرطول

السطر الثانى : سنة (٤٦٣) بعد مفسد

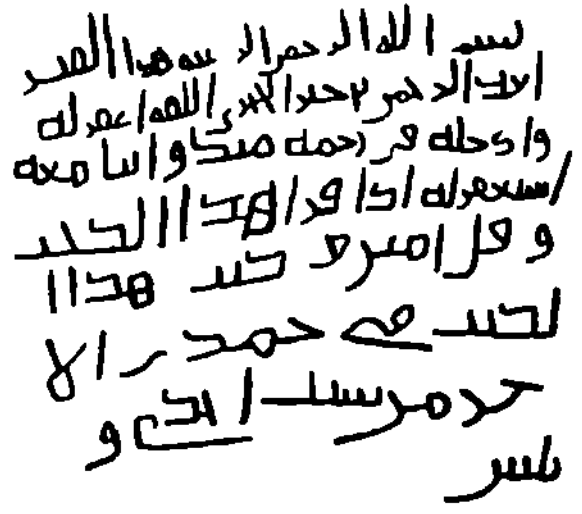

رقم (٩) نقش القاهرة

رقم (١٠) رسالة رسول الله إلى المنذر بن ساوى

السطر الثالث : خيبر

السطر الرابع : بعام[١]

* * *

ولكن لا بد لنا من أن نعترف، اعترافاً واضحاً لا لبس فيه ، أن كل دراسة لموضوع الكتابة فى العصر الجاهلى ستبقى دراسةً مبتورة ناقصة ما دامت رمال الجزيرة العربية تضن بهذه الكنوز ، التى ترقد فى بطونها ، عن أن تجلوها لأبصار الدارسين ، حتى يسائلوها أخبار هؤلاء الأسلاف الذين شاء لهم جحود التاريخ أن يوصموا بالجهل والبدائية[٢] . ولا بد لنا من أن نقرّر كذلك أن فى هذه النصوص التى بين أيدينا — على جليل قدرها وعظيم نفعها للدارس — ثلاثَ نقائص :

الأولى : قلة عددها قلةً تلجئ الدارس إلى أن يحتاط فى حكمه ويلقى القول إلقاء مقيداً بعيداً عن التعميم .

والثانية : تباعُدُ فتراتها ، وانفصال أوائلها عن أواخرها ، لوجود فجوات زمنية عريضة . فقد أغفلنا ذكر قرن كامل بسنيه المائة ، هو القرن الخامس الميلادى ، لأننا لم نجد نقشاً عربيًّا يرجع تاريخه إلى هذا القرن . وكذلك لم نعثر فى القرن الرابع إلا على نقش واحد يرجع إلى ثلثه الأول ، وأما ثلثاه الأخيران فخاليان أصمّان . ولم يعثر فى القرن السادس إلا على نقشين : أولهما فى سنواته الأولى (سنة ٥١١ م) ، والآخر بعد منتصفه (سنة ٥٦٨ م) ، وما بينهما نصف قرن صامت مُصمَت . ومن هنا كان لا بد للدارس الذى يريد تتبع البحث من أن يملأ هذه الفجوات بالاستنتاج والاستنباط .

---

(١) يقول ليتمان : إن مفسد خيبر إنما يشير إلى غزوة أحد أمراء بنى غسان لخيبر ، ويستدل بقول ابن قتيبة (المعارف — طبعة وستنفيلد : ٣١٣) : ثم ملك بعده الحارث بن أبى شمر . . . وكان غزا خيبر ، فسبى من أهلها ثم أعتقهم بعد ما قدم الشام (ولفنسون : تاريخ اللغات السامية : ١٩٢)

(٢) انظر : جواد على ، تاريخ العرب قبل الإسلام ١ : ١٩٥ — ١٩٦ ، ٢٠١ .

وأما النقيصة الثالثة — وهى أخطرها فى نظرنا — فهى أن هذه النقوش كلها قد اكتشفت فى المنطقة الشمالية من بلاد العرب التى تمتد من العُلا ومدائن صالح إلى شمال بلاد حوران، وأما مُوسَط بلاد العرب وصميمها : الحجاز ونجد، فلم يُعثر — حتى الآن — على شىء من النقوش الجاهلية فيها . فإذا كانت هذه النقوش بكلماتها الفصيحة وخطها العربى قد اكتشفت فى منطقة كانت مسرحاً لآثار ورواسب من الثمودية والآرامية والنبطية لغةً وخطًّا، فكيف تكون هذه النقوش التى قد تكتشف فى الحجاز ونجد ؟ وإذا كانت اللغة الفصيحة والقلم العربى قد نُقِشا فى تلك المنطقة منذ أوائل القرن الرابع الميلادى — بل ربما قبله — فإلى أىِّ عهد ترجع بنا نقوش الحجاز ونجد ؟

ومن تمام هذا البحث أن نشير إلى الكتابات العربية التى يرجع تاريخها إلى صدر الإسلام — عصر الرسول الكريم وخلفائه الراشدين — وذلك ليستبين لنا مدى الشبه — بل المطابقة — بينها وبين هذه النقوش الجاهلية ، وخاصة فى طورها الأخير : نقش حرَّان . وهذه الكتابات الإسلامية على ضربين : نقوش وكتابة .

١ — النقوش :

(ا) نقش القاهرة ، وهو مؤرخ فى سنة ٣١ للهجرة — أى فى عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه — وهو محفوظ فى دار الآثار العربية (انظر صورة رقم ٩) .

(ب) وقد كان يُظَنُّ أن نقش القاهرة أقدم نقش إسلامى عُثِر عليه، ولكن الدكتور محمد حميد الله عثر على عدة نقوش على قمة الطرف الجنوبى لجبل سلع فى المدينة المنورة خارج سورها الشمالى. ويرجح الدكتور حميد الله أن هذه النقوش ترجع فى تاريخها إلى غزوة الخندق فى السنة الخامسة للهجرة[1] .

(١) M. Hamidullah, Some Arabic Inscriptions of Medinah of The Early Years of Hijrah, Islamic Culture, Vol. 13 No.4, October 1939, p. 427 Seq.

٢ – الكتابات : وهى ثلاث رسائل أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر ، وإلى المنذر بن ساوى ، وإلى النجاشى فى الحبشة . وقد عُثر على مايُظَنّ أنه الأصول الحقيقية لهذه الرسائل . وقد كتب الدكتور حميد الله بحثاً قيماً فى مجلة "Islamic Culture" عرض فيه صورتين لرسالتى المنذر والمقوقس (انظر رسالة المنذر صورة رقم ١٠) وتحدث مفصّلاً القول فى اعتراضات بعض المستشرقين على صحة هذه الرسائل وأصالتها ، وفندها جميعها ، وانتهى إلى أن هذه الاعتراضات لا تثبت أمام البحث العلمى الدقيق . ومع ذلك فهو ، فى بحثه السليم ، يتوقف توقف العالم المتثبت ، فلا يقطع بصحة هذه الأصول ، بل يكتفى برد تلك الشبهات التى حامت حول صحتها ، ثم يدعها قائمة تنتظر نفياً أو إثباتاً جديدين .

ومهما يكن من أمر ، فنحن – فى بحثنا هذا – فى موقف بعيد عن هذه المزالق ، وذلك أننا نكتفى بهذه النقوش الإسلامية التى اكتشفت على الحجر والصخر والتى ترجع إلى صدر الإسلام ، وهى أصول ثابتة يقينية – مهما يكن تاريخ نقوش جبل سلع – نعتمد عليها فى أمر واحد لا نعدوه ، هو تبيان هذا التشابه بين كتابة صدر الإسلام وكتابة العصر الجاهلى الأخير ، وإظهار أنه ليس بينها من فروق إلا ما يقتضيه عامل الزمن من تطور .

* * *

فقد كان العرب إذن يكتبون فى جاهليتهم ثلاثة قرون على أقل تقدير بهذا الخط الذى عرفه بعد ذلك المسلمون . وقد أصبحت معرفة الجاهلية بالكتابة ، معرفة قديمة ، أمراً يقينياً ، يقرّره البحث العلمى القائم على الدليل المادىّ المحسوس ؛ وكل حديث غير هذا لا يستند إلا إلى الحدس والافتراض . ولا ريب فى أن ما سيُعثر عليه فى مُقبل الأيام من نقوش فى قلب الجزيرة سيدعم رأى الذين يذهبون إلى أن عرب الجاهلية كانوا يعرفون الكتابة منذ قرون قبل الإسلام ، وسيلقى كثيراً من النور على ما لا يزال خافياً من أجزاء الموضوع .

* * *

النقط والشكل والإعجام :

وهذه النقوش تقودنا إلى الحديث فى نقطة أخرى لها خطرها الكبير فى تاريخ الكتابة العربية فى الجاهلية . ونحن نعرض فى هذا الموضوع ما وصلنا إليه فى بحثنا ؛ وسنكتفى بالعرض المجرَّد وحده ، لا نثبت ولا ننفى ، فحسبنا أن نثير هذا الموضوع ونجعله ميداناً للبحث لعل مُقبل الأيام يتكفل بجلائه ويُمدنا بما نستطيع أن نلقى به القول الفصل مطمئنين واثقين .

تلك هى مسألة النقط والإعجام . فهذه النقوش التى عرضناها جميعاً خالية من النقط خلواً كاملاً ، فليس فيها حرف واحد منقوط ، وكذلك كانت الكتابة النبطية — التى يرجح أن الخط العربى مشتق منها ومتطور عنها — لا تعرف النقط والإعجام [١] . وقد كان من الجائز أن نقف عند هذا الحد الذى أوقفتنا عنده هذه النقوش ، وأن نردّد مع جميع الباحثين قبلنا رأيهم فى أن الكتابة العربية ، فى أول نشأتها ، كانت غير منقوطة ، بل إنها استمرت خالية من النقط حتى زمن عبد الملك بن مروان [٢] . ولكن وجهاً آخر استبان لنا فى أثناء الدراسة فوجدنا حقاً علينا أن نعرضه . وخلاصة ذلك أننا عثرنا فى خلال بحثنا على قول أورده القاضى أبو بكر بن العربىّ فى كتابه « العواصم من القواصم » ، قال [٣] : « وكان نقل المصحف إلى نسخه على النحو الذى كانوا يكتبونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم كتابةَ عثمان وزيد وأبىّ وسواهم من غير نقط ولا ضبط . واعتمدوا هذا النقل ليبقى بعدَ جمع الناس على ما فى المصحف نوع من الرفق فى القراءة باختلاف الضبط » .

---

(١) خليل يحيى نامى ، أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام ، ص : ٨٧.

(٢) انظر كتاب التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الأصفهانى (ورقة ٣٧ — ٤٠) حيث يذكر أن الحجاج أمر كتابه أن يضعوا للحروف المشتبهة — مثل الباء والتاء والثاء والنون — علامات تميزها .

(٣) ج ٢ ص ١٩٦ — ١٩٧ (ط . الجزائر) .

وقد استوقفنا كلام ابن العربى على غموضه وحاجته إلى فضل بيان يوضحه، فلما قرأنا ما سنعرضه من كلام ابن الجزرى كان خير موضح ، قال[١] « . . . ثم إن الصحابة رضى الله عنهم لما كتبوا تلك المصاحف جرّدوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن فى العرضة الأخيرة مما صحّ عن النبى صلى الله عليه وسلم . وإنما أخلَوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوَّين شبيهةً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين . فإن الصحابة رضوان الله عليهم تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمر الله تعالى بتبليغه إليهم من القرآن : لفظه ومعناه جميعاً ، ولم يكونوا ليسقطوا شيئاً من القرآن الثابت عنه صلى الله عليه وسلم ولا يمنعوا من القراءة به » .

وقول ثالث رُوِىَ عن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال[٢] « جرِّدوا القرآن ليربوَ فيه صغيركم ولا ينأى عنه كبيركم . . » وقد ذكر الزمخشرى شارحاً قول ابن مسعود أنه « أراد تجريده من النقط والفواتح والعشور لئلا ينشأ نشءٌ فيرى أنها من القرآن » .

وهذه الأقوال الثلاثة يُفهَم منها أن النقط أمر قد كان معروفاً قبل كتابة مصحف عثمان، ثم عُدل عنه عدلاً مقصوداً، وجُرِّد القرآن منه تجريداً متعمداً . والقول فى « تجريد » القرآن طويل ، ونحن نعلم أن من ضمن ما يقصد من « التجريد » أن يُكتب القرآن وحده فى الصفحة لا يختلط به شىء من التفسير أو الحديث أو القصص أو أية كتابة أخرى ، لئلا يختلط على القارئ فيتوهم أن جميع المكتوب هو من القرآن الكريم . ولكن كلام الزمخشرى وابن العربى وابن الجزرى واضح وضوحاً لا لبس فيه ، وهو ينص على أن « تجريد القرآن » يتضمن تجريده من النقط أيضاً .

وقد يكون المقصود من النقط هنا « النقط بالنحو » أى نقط أبى الأسود

---

(١) النشر فى القراءات العشر (ط . دمشق) ص ٣٢ — ٣٣ .

(٢) الزمخشرى ، الفائق ١ : ١٨٦

الدؤلى ، وهو بيان حركات أواخر الكلام بوضع نقطة فوق الحرف للدلالة على الفتحة ، ونقطة تحت الحرف للدلالة على الكسرة ، ونقطة بين يدى الحرف للدلالة على الضمة ، بحبر يخالف لونُه لونَ حبر الكتابة نفسها [١] .

ومع تقريرنا لهذا المعنى فإننا نرى فى قول ابن الجزرى : « وإنما أخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوَّيْن شبيهةً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين » — تفريقاً بين النقط والشكل ، وذكراً لكل منهما وحده ؛ ونرى كذلك أن تجريد الكلمات من النقط لاحتمال الكلمة القراءات المختلفة يقتضى أن يكون من معانى النقط المعنى الذى نفهمه منه اليوم . وللقراءات التى تحتملها الكلمة الواحدة الخالية من النقط أمثلة كثيرة[٢] ، لعل أوضحها وأشهرها ما ورد فى سورة النساء آية ٩٤ :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذا ضَرَبْتُم فى سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إليكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾.

وفى قراءة : « فتثبتوا » ورسم هذه الكلمة « فسوا » محتمل للقراءتين .

كانت إذن هذه الأقوال الثلاثة : قول الزمخشرى وابن العربى وابن الجزرى ، أول ما وقفنا عند أمر النقط ، فضينا فى أثناء بحثنا نجمع من الروايات والنصوص والأدلة ما قد يدعم هذا الوجه ؛ فكان من ذلك :

---

(١) انظر لبيان المقصود بنقط المصحف : السجستانى ، كتاب المصاحف : ١٤٣ ؛ وانظر لبيان نقط أبى الأسود : ابن النديم — الفهرست ص ٦٠ ، والسيرافى : ١٥ — ١٨ .

(٢) انظر بعض هذه الأمثلة فى كتاب جولد تسيهر : المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ، ترجمة على حسن عبد القادر ، ص : ٤ — ٦ .

١ — ما رواه الفرّاء قال[١] : « حدثني سفيان بن عُيَيْنة ، رفعه إلى زيد ابن ثابت ، قال : كتب في حجر : نسرها ، ولم نس ، وأنظر إلى زيد بن ثابت فنقط على الشين والزاى أربعاً ، وكتب " يتسنه " بالهاء » .

٢ — وروى عن ابن عباس قال[٢] : « أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان ، وهى قبيلة سكنوا الأنبار ، وأنهم اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة ، وهم : مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدرة — ويقال مروة وجدلة — فأما مرامر فوضع الصور ، وأما أسلم ففصل ووصل ، وأما عامر فوضع الإعجام » .

وقد ذكرنا فى صدر هذا البحث أن صحة هذه الرواية وأمثالها عن أصل الخط العربى لا تعنينا فى شىء ، ونحن هنا لا نسوقها إلا لأمر واحد لا نعدوه ، وذلك أن فى هذا القول لابن عباس — إن كان قاله — دليلاً واضحاً على أن ابن عباس كان يعرف الإعجام ، وأنّ مَن قبله كانوا يعرفونه ؛ وأما إن لم يكن قاله فما زال يحمل من الدلالة ما لا يصح معها أن نغفله ، وذلك أن واضع هذا القول وناسبه إلى ابن عباس كان لا بد يعرف أن ابن عباس كان يعرف الإعجام — وإلا لما قَبِل الناس قوله .

٣ — وقد ذكر السجستانى أن « الحجاج بن يوسف غيَّر فى مصحف عثمان أحد عشر حرفاً ، قال : ... وكانت فى يونس (آية ٢٢) "هو الذى ينشركم" فغيَّره " يسيِّركم » " .

وقد نقبل أن يكون الحجاج هو الذى نقط هذه الكلمة وكانت من قبلُ غيرَ منقوطة كما يزعمون ، ولكنْ أن يكون غيَّر نقطها فذلك هو ما نقف عنده ،

---

(١) معانى القرآن ١ : ١٧٢ — ١٧٣ .

(٢) مصاحف السجستانى : ٤٩ ، ١١٧ .

ونفهم منه أنها كانت منقوطة قبله ، ثم غير هذا النقط ، وإلا فالكلمة من غير نقط تحتمل الوجهين ولا سبيل إلى ذكر أن الحجاج قد غيَّر نقطها .

٤ — ولقد كانت الكتابة الحميرية والصفوية والثمودية واللحيانية ، والكتابة النبطية التى يرجَّح أن الكتابة العربية مشتقة منها — كانت كل هذه الكتابات غير منقوطة[١] ، ولكن المدقق فيها يجد أن الكثرة الغالبة من حروفها يختلف بعضها عن بعض اختلافاً يمنع اللبس والاختلاط ، ومن هنا لم تكن فى حاجة إلى نقط . وأما الخط العربى فكثير من حروفه متشابهة فى الكتابة تشابهاً كاملاً ، مختلفة فى الصوت اختلافاً تامًّا ؛ ولا سبيل إلى التفرقة بينها إلا بالنقط ، بل إن هذا التشابه العجيب بين الحروف ليكاد يجعلنا نظن أن الحرف منذ أن وُجِد وُجِد معه نقطُه ، وأن النقط ضرورة من ضرورات هذه الحروف منذ نشأتها[٢] ، إلا إذا كان يفرق بينها بوسيلة أخرى من وسائل الخط توضحها وتمنع اختلاطها مع غيرها . وإلا لكانت الكتابة ، وخاصةً الطويلة منها ، عسيرة القراءة لا سبيل إلى فهمها . ولا عبرة فى تجريد القرآن الكريم فإن الأصل فيه أن يكون محفوظاً فى الصدر ، وأن يرجع الحافظ إلى الكتاب للتذكر ، أو أن يتلقاه المتعلم من معلم يحفِّظه إياه ثم يعود إلى الكتاب للاستذكار .

٥ — ومن أوضح الأحاديث وأصرحها عن النقط ما أورده ابن السيِّد البطليوسى وهو يتحدث عن الكتاب ، قال[٣] : « . . فإذا نقطته قلت : وشمته وشماً ،

---

(١) انظر جرائد حروف هذه اللغات فى ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية ص ١٧٩ وص ٢٠٠ .

(٢) وفى ذلك يقول القلقشندى (صبح الأعشى ٣ : ١٥٥) « والظاهر ما تقدم — يعنى : أن الإعجام موضوع مع وضع الحروف — إذ يبعد أن الحروف قبل ذلك مع تشابه صورها كانت عرية عن النقط إلى حين نقط المصحف » ، وانظر كذلك كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم لمولى أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبرى زادة ج ١ ص ٨٠ .

(٣) الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب : ٩٣ .

ونقطته نقطاً، وأعجمته إعجاماً ، ورقّمته ترقيماً». وكان من اليسير علينا أن نمر بهذا القول مرًّا هيناً ثم نتجاوزه من غير أن نقف عنده ، معتقدين أنه ينصرف إلى أزمنة تالية للقرن الأول الهجرى — لولا أن ابن السِّيْد نفسه يستشهد — بعد قوله المتقدم — بأشعار جاهلية فقد أورد — دليلاً على هذه الألفاظ الدالة على النقط — أبياتاً لأبى ذؤيب والمرقّش وطَرَفة . قال أبو ذؤيب :

برقْم وَوَشْم كَمَا تَمْنَمتْ بِمِيشَمِهَا المُزْدهَاةُ الهَدِىُّ

وقال المرقّش :

الدّار قَفْرٌ والرسُومُ كَمَا رَقَّش فى ظَهْرِ الأَدِيمِ قَلَمْ

وقال طرفة :

كَسُطورِ الرَّقِّ رقَّشَهُ بالضُّحَى مُرقِّشٌ يَشِمُه

وقد كدنا ننسب قول ابن السيد إلى التعجل والتسرع وإغفال الدقة فى تحديد أزمان الألفاظ — فقد كان يبدو لنا أن الوشم والرقم والترقيش ، فى هذه الأبيات ، لا تعنى أكثر من تجويد الخط وتحسينه — لولا أن الأعلم الشَّنْتَمَرِىّ يذكر ما ذكره ابن السيد . قال الأعلم فى شرح بيت طرفة المتقدم[1] « وقوله : كسطور الرق : شبه رسوم الرَّبع بسطور الكتاب ، ومعنى رقشه : زينه وحسنه بالنقط » — ولولا أن أبا علىّ القالىّ قد ذهب إلى ذلك أيضاً، قال[2] : « رقشت الكتاب رقشاً ورقّشته : إذا كتبته ونقطته » . ثم استشهد ببيت طرفة .

٦ — وربما كان أخطر ما يوجه إلى من يدعى نقط الكتابة فى الجاهلية هو هذه النقوش الجاهلية الخالية من النقط . وهو دليل لا سبيل إلى إنكاره ، وإن كان لا بأس فى التحدث عنه حديثاً قد يكون فيه بعض حجة ؛ وذلك أن

---

(١) ديوان طرفة (ط . شالون سنة ١٩٠٠) ص : ٦٩ .

(٢) الأمالى ٢ : ٢٤٦ .

جميع ما عثرنا عليه من الكتابة الجاهلية كان نقوشاً على الحجر والصخر ، وكان سطوراً قلائل بل كلمات معدودات ؛ ولم نعثر على كتابة جاهلية على الرق أو البردى مثلاً كثيرة السطور والكلمات . فربما كان عدم النقط ناجماً عن اطمئنان الكاتب إلى أن كلماته هذه المنقوشة فى نجاة من التصحيف والخلط فى القراءة ، لأنها أسماء أعلام ، وسنوات ، وكلماتٌ بينهما من اليسير معرفتها ؛ وربما كان مما يسوِّغ له إهمال النقط فوق ذلك صعوبةٌ فنية ومشقة عملية فى النقش .

٧ — ولعل خير ما يدعم هذه النقطة السابقة من حديثنا : تلك الوثيقة البردية التى يرجع تاريخها إلى سنة ٢٢ هجرية على عهد عمر بن الخطاب وهى مكتوبة باللغتين العربية واليونانية [١] . والذى يعنينا من هذه البردية أن بعض حروفها منقوط مُعجم وهى حروف : الخاء والذال والزاى والشين والنون . وكذلك الشأن فى نقش وُجد بقرب الطائف ومؤرخ فى سنة ٥٨ هجرية على عهد معاوية ابن أبى سفيان ، فإن أكثر حروفه التى تحتاج إلى نقط منقوطة مُعجمة [٢] .

فنحن نرى إذن أن تاريخ الوثيقة البردية وهو سنة ٢٢ هجرية سابق بسنوات كثيرة على ما ذكره الكُتَّاب العرب فى نشأة النقط والإعجام ، وكذلك هذا النقش المؤرخ فى سنة ٥٨ هجرية . وثمة أمر آخر يجدر بنا أن ننبه عليه وهو أن أكثر الوثائق البردية — التى عُثر عليها مؤرخةً فى القرن الأول الهجرى — غيرُ منقوطة ولا معجمة ، وذلك يعنى أن إهمال النقط فيما عثرنا عليه من نقوش جاهلية لا يعنى ضرورةً أن النقط لم يكن معروفاً مستعملاً ، لأن إهمال النقط فى النقوش وأوراق البردى الإسلامية لم يمنع وجودَ وثائقَ ونقوش منقوطة . وجدير بالذكر أن إهمال

---

(١) صورة هذه البردية فى كتاب الدكتور جروهمان From The World Of Islamic Papyri, Pl. 11 (a) ووصفها ونصها مع ترجمتها فى ص ١١٣ — ١١٤ ؛ ثم انظر ص ٨٢ من الكتاب نفسه .

(٢) انظر مقالة : ج . س . مايلز عن : النقوش الإسلامية المبكرة بقرب الطائف فى الحجاز G.G. Miles. Early Islamic Inscriptions Near Taif in The Hijaz. JNES. 7 (1948). وصورة النقش هناك رقم 18 .

النقط أمر كان شائعاً فى العهود الإسلامية قروناً متوالية ، بل لقد عد بعضهم الإعجام والنقط مما لا يليق فى الكتب والرسائل لأنه يدل على أن الكاتب يتوهم فيمن يكتب إليه الجهل وسوء الفهم[1] .

* * *

وحسبنا ما قدمنا عن النقط ، ونحن أول من يعرف أن هذا كله لا يقوم وحده دليلاً قاطعاً على وجود النقط قبل الإسلام ، ولكننا أحببنا أن نثبته للأسباب التى قدّمناها ، فلعل غيرنا قادر من بعدنا على الوصول إلى مفصل من الأمر يُتم به ما بدأنا .

* * *

تعلم الكتابة فى الجاهلية وشيوعيها :

١

لم يُعنَ القدماء من المسلمين — فيما وصل إلينا من كتبهم — بدراسة مناحى الحياة الجاهلية دراسةً مفصلة ، تتناول أجزاءها ودقائقها فى كتب أو رسائل مفردة ، يختصّ كل كتاب بمنحى من مناحى تلك الحياة المتشعبة . ولا يَعْنِي ذلك أن هؤلاء القدامى قد أغفلوا الجاهلية إغفالاً ، بل لا يكاد كتاب عربى قديم يخلو من ذكر الجاهلية وحياة أهلها — ولكن الحديث عن هذه الجاهلية لم يكن يُقصد لذاته ، فتُسْبَر أغوارُه ويُلَمّ شتاته ، وإنما كان يُقصَد لغيره من موضوعات العصور الإسلامية التى كانوا يكتبون فيها ، فيستطردون للحديث عن الجاهلية : متمثلين مستشهدين ، أو مقابلين موازنين ، أو واعظين منذرين ،

---

(١) قال أبو بكر الصولى فى كتابه أدب الكتاب ص ٥٧ — ٥٨ : « كره الكتاب الشكل والإعجام إلا فى المواضع الملتبسة من كتب العظماء إلى من دونهم ، فإذا كانت الكتب ممن دونهم إليهم ترك ذلك فى الملتبس وغيره ، إجلالا لهم عن أن يتوهم عنهم الشك وسوء الفهم ، وتنزيهاً لعلومهم وعلو معرفتهم عن تقييد الحروف » .

أو ممهِّدين بين يدى حديثهم الأصيل تمهيداً موجزاً يدخلون منه إلى الحديث عما يقصدون . فيكاد يكون حديثهم عن الجاهلية حديثاً عابراً منثوراً نثراً متباعداً فى تضاعيف كتبهم وثنايا رسائلهم . ومن هنا كان لا بد للدارس المدقق ، الذى يبحث فى العصر الجاهلى ، من أن يقرأ الكتاب العربى القديم قراءة متمعنة دقيقة ، يجرِّدُه فيها جرداً كاملاً من عنوانه حتى ختامه ، لا يغنيه عن ذلك تبويب الكتاب ، ولا هذه الفهارس الدقيقة الشاملة التى يضعها المحدثون للطبعات الحديثة من تلك الكتب القديمة .

وكان من أثر هذا الذى قدمنا أن أخبار حضارة الجاهلية جاءت فى هذه الكتب ناقصة شائهة ، ثم متناقضة متنافرة فى الكتاب الواحد للمؤلف الواحد . ولكن الصفة الغالبة والسمة الظاهرة التى لا يكاد يشذُّ عنها كتاب قديم ، هى وصف تلك الجاهلية بأنها كانت قليلة الحظ من كل عمران ورقىّ ، بعيدةً عن كل مظهر من مظاهر الحضارة والمدنية ، وأن العرب كانوا أمة أمِّيَّة جاهلة لا حظ لها من علم أو معرفة أو كتابة .

ولتجهيل الجاهلية فى الكتب العربية أمثلةٌ عديدة أكثر من أن تُستقصَى ، وحسبنا منها بعضها الذى يشير إلى أميتهم وجهلهم بالكتابة :

قال الجاحظ [1] : « وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال . . ثم لا يقيده (العربى) على نفسه ولا يَدْرُسُه أحداً من ولده . وكانوا أميين لا يكتبون » . مع أن الجاحظ نفسه ، الذى ينكر على العرب معرفتهم بالكتابة ، ويَعُمُّهُم بوصف الأمية ، لا ينكر على أى جنس من الأجناس وأمة من الأمم ذلك ، فيقول [2] : « وليس فى الأرض أمة بها طِرْق أو لها مُسكة ، ولا جيل لهم قبض وبسط ، إلا ولهم خط . . . »

وابن سعد فى طبقاته يسمِّى عدداً كبيراً من الرجال كانوا يكتبون فى الجاهلية ،

---

(١) البيان والتبيين ٣ : ٢٨ .

(٢) الحيوان ١ : ٧١ .

ولكنه لا يكاد يذكر ذلك حتى يعقب عليه بقوله : « وكانت الكتابة فى العرب قليلة » . وهو يقول ذلك فى كل مرة يذكر فيها كاتباً فى الجاهلية ، لا يكاد يُخِلُّ بذلك مرة واحدة ، ذلك مع أننا جمعنا من كتابه وحده عدداً وافراً من الأخبار عن الكتابة فى الجاهلية وأسماء الذين كانوا يكتبون .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما يردده بعضهم من أنه لم يكن أحد يكتب بالعربية حين جاء الإسلام إلا بضعة عشر نفراً [١] .

وهذا عبد القادر البغدادى صاحب الخزانة يورد بيت الحُطَيئة[٢] :

سيرى أُمَامَ فإن الأكثرين حصاً والأكرمين ، إذا ما يُنسبون ، أبا

ثم يقول : « معنى الحصا : العدد ، وإنما أطلق على العدد لأن العرب أميون لا يقرءون ولا يعرفون الحساب ، إنما كانوا يعدون بالحصا ، فأطلق الحصا على العدد ! ! » أفبعد هذا تجهيل ؟ أو بعد هذا أمية وبدائية ؟[٣] .

وكان من أثر هذه المحاولة التى ترمى إلى تجهيل الجاهلية أن امتد أثرها إلى تجهيل الصحابة أنفسهم — رضى الله تعالى عنهم — بالكتابة ، ونعتهم بالأمية . وما ذلك إلا مبالغة فى وصم الجاهلية نفسها بهذا الجهل ، لأن هؤلاء الصحابة ، أو كثرتهم الكاثرة ، إنما نشأوا وتم تكوُّنهم الثقافى الفكرى فى الجاهلية . فقد قال عالم جليل هو ابن قتيبة حين تعرض فى حديثه لسماح الرسول الكريم لعبد الله ابن عمرو بتقييد الحديث ، قال ابن قتيبة [٤] : « لأنه (أى عبد الله بن عمرو) كان قارئاً للكتب المتقدمة ، ويكتب بالسريانية والعربية ، وكان غيره من الصحابة

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد ٤ : ٢٤٢ .

(٢) الخزانة — سلفية ٣ : ٢٦٠ — ٢٦١ ، والبيت فى ديوان الحطيئة : ٦ .

(٣) ومع ذلك فإن فى هذا الكلام وجه حق لو أنه حدد ووضح ونص على أن كلمة «أحصى» من أقدم الكلمات تاريخاً فى اللغة العربية لأنها شاهدة على أنها كانت تعيش فى الزمن الأول البدائى الذى كان العرب فيه لا يعرفون الحساب وإنما يعدون بالحصى .

(٤) مختلف الحديث (ط . مصر) ١٣٢٦ ص : ٣٦٥ — ٣٦٦

أميين ، لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان ، وإذا كتب لم يتقن ولم يُصب التهجّى » .

ولا ريب أن هذا القول من ابن قتيبة افتئات على الحقيقة التاريخية ، وتعميم لا سند له من الحق . ولو قال ابن قتيبة إن بعض الصحابة كان أميًّا لكان قوله سليماً لا ريب فيه، أو لو قال إن أكثر الصحابة كان أميًّا لقبلنا هذا القول على أنه حق أو على أنه تجوُّزٌ وتعميم لا يبعدان عن الحق كثيراً . أما أن يقول إن الصحابة كانوا « أميين لا يكتب منهم إلا الواحد أو الاثنان » ثم لا يلبث أن يستنكر عليهم أن يكون منهم كاتب واحد أو كاتبان فيستدرك بقوله « وإذا كتب لم يتقن ولم يصب التهجى » فذلك هو الإسراف الذى ننكره . وكيف لا ننكره وكتب الطبقات والرجال تعُدُّ من الصحابة عشرات بعد عشرات كلهم كاتب ضابط لما يكتب ؟ وقد نسى ابن قتيبة فى سَوْرة رغبته فى تجهيل الجاهلية أن هؤلاء الصحابة الكاتبين إنما تعلم أكثرهم الكتابة فى الإسلام — لا فى الجاهلية ، وأن حَضَّ الرسول الكريم المسلمين والصحابة على التعلم ، وأمْرَه إياهم بتعلم الكتابة خاصةً ، وعناية المسلمين والصحابة بذلك — كلها أمور فى غنى عن الإفاضة فى الشرح والاستشهاد .

* * *

ولا بد لنا من أن نستدرك قبل أن نمضى ، وننبه على أن القرآن الكريم قد وصف العرب فى جاهليّهم بأنهم أميون ، وورد ذلك فى ثلاث آيات ؛ قال تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالْأُمِّيِّين أَأَسْلَمْتُم ﴾ (آل عمران : ٢٠) ، وقال تعالى : ﴿ ذٰلك بِأَنَّهُمْ قالوا : لَيْسَ علَينَا فى الْأُمِّيِّينَ سَبِيل ﴾ (آل عمران : ٧٥) ؛ وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنهُمْ ﴾ (الجمعة : ٢) .

غير أن هذا الوصف بالأمية لا يعنى — فى رأينا — الأمية الكتابية ولا العلمية ، وإنما يعنى الأمية الدينية ، أى أنهم لم يكن لهم قبل القرآن الكريم كتاب دينى ، ومن هنا كانوا أميين دينيًّا ، ولم يكونوا مثل « أهل الكتاب » من اليهود والنصارى ، الذين كان لهم التوراة والإنجيل .

ومن الأدلة التى نسوقها للاحتجاج لهذا الرأى أن القرآن الكريم قد وصف فريقاً من أهل الكتاب بالأميين ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ومِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وإِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّون . فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثم يَقُولُونَ هذا من عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً ، فويلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِم وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُون﴾ (البقرة : ٧٨ ، ٧٩) . فأمية هذا الفريق ليست أمية كتابية ، لأنه قد أخبر أنهم كانوا يكتبون بأيديهم ، وإنما هى أمية دينية أى جهل بالدين وإنكارٌ له وعدم تصديق ، ومن أجل هذا فسر ابن عباس هاتين الآيتين فيما رواه ابن جرير الطبرى بإسناده إليه[1] ، قال : « ومنهم أميون ؛ قال : الأميون قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله ، ولا كتاباً أنزله الله ، فكتبوا كتاباً بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهال : هذا من عند الله . وقال : قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ، ثم سماهم أميين ، بجحودهم كتب الله ورسله » .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » . فلا ينقض ما قدّمنا من رأى ، وذلك لأنه قال ذلك فى حديث الصيام عن رؤية الهلال ، وفى الحديث بقية ، وهو كاملاً : « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ، الشهر هكذا وهكذا » .

---

(١) تفسير الطبرى ، تحقيق محمود محمد شاكر ٢ : ٢٥٨ — ٢٥٩ ؛ وانظر كتاب « المرأة فى الشعر الجاهلى » للدكتور أحمد محمد الحوفى ، ص ٣٣٣ — ٣٣٤ .

فهذا الحديث ــ أولاً ــ لا يعنى إلا ضرباً خاصاً من الكتابة والحساب ، هو حساب سير النجوم ، وتقييد ذلك بالكتابة لمعرفة مطلع الشهر ؛ فقد أخبر أن هذا الضرب من العلم المدوّن المسجل القائم على الحساب والتقويم لم يكن للعرب عهد به ، ومن هنا علق الحكم بالصوم وغيره بالرؤية لرفع الحرج عنهم فى معاناة حساب التسيير .

وهذا الحديث ــ ثانياً ــ لا يعنى نفى الكتابة والحساب نفياً عاماً شاملاً ، وذلك لأن عرب الجاهلية قد كانوا يكتبون ويحسبون ، وإنما هو نفى لأن تكون الكتابة وأن يكون الحساب نظاماً عاماً متبعاً فى كل الشئون كما كان ذلك عند بعض الأمم الأخرى ذات التقاويم الفلكية .

ومن أجل هذا رأينا أن الحديث لا ينقض ما قدّمنا من أمر معرفة العرب بالكتابة بعد أن أقمنا عليها من الشواهد والأدلة ما أقمنا .

٢

لقد فرغنا منذ قليل من الإشارة إلى أن عرب الجاهلية قد عرفوا الكتابة العربية بهذا الخط الذى عرفه الصحابة ، رضوان الله عليهم ، فى صدر الإسلام ، وأن معرفة الجاهليين بهذه الكتابة قد امتدت ، فى الجاهلية ، ثلاثة قرون على أقل تقدير ، وأن ذلك ثبت بالبرهان القاطع ، والدليل المادى الملموس الذى لا سبيل إلى دفعه . وسنفصل القول هنا ، وفيما سيتلو من صفحات ، فى معرفة الجاهلية بالكتابة ــ تفصيلاً يدعم ما أظهرته لنا النقوش الجاهلية ويزيد جوانب الأمر جلاءً ووضوحاً [1] .

---

(١) من خير ما كتب فى هذا الموضوع الفصل الذى عقده الدكتور أحمد محمد الحوفى فى كتابه « المرأة فى الشعر الجاهلى » من ص : ٣١٧ ــ ٣٣٥ .

ونحب أن نبدأ حديثنا بإيراد نصّ لابن فارس ، مشرق العبارة ، ناصع الحجة ، هو خير ما قرأناه فى هذا الموضوع . قال ابن فارس بعد أن عرض لذكر بعض الأعراب ممن كان لا يحسن الكتابة [1] : « . . . فأما من حُكِىَ عنه من الأعراب الذين لم يعرفوا الهمز والجر والكاف والدال ، فإنا لم نزعم أن العرب كلها ، مَدَراً ووبراً ، قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها . وما العرب فى قديم الزمان إلا كنحن اليوم : فما كلٌّ يعرف الكتابة والخط والقراءة ، وأبوحية (النُّمَيْرِىّ الذى لم يعرف الكاف) كان أمس ، وقد كان قبله بالزمن الأطول من يعرف الكتابة ويخط ويقرأ ، وكان فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتبون . . أفيكون جهل أبى حية بالكتابة حُجة على هؤلاء الأئمة ؟ والذى نقوله فى الحروف هو قولنا فى الإعراب والعروض . والدليل على صحة هذا وأن القوم قد تداولوا الإعراب أنا نستقرئ قصيدة الحطيئة التى أولها :

شَاقَتْكَ أَظْعانٌ لِلَيْ لَى دُوْنَ ناظِرةٍ بَواكِرْ

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والإعراب تجىء مرفوعة ، ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها لأن تساويها فى حركة واحدة — اتفاقاً من غير قصد — لا يكاد يكون .

فإن قال قائل : فقد تواترت الروايات بأن أبا الأسود أول من وضع العربية ، وأن الخليل أول من تكلم فى العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديماً ، وأتت عليهما الأيام ، وقلاّ فى أيدى الناس ، ثم جددهما هذان الإمامان ، وقد تقدم دليلنا فى معنى الإعراب . وأما العروض فمن الدليل على أنه كان متعارفاً معلوماً اتفاق أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا

---

(١) الصاحبى : ٨ — ١١ .

القرآن قالوا — أو من قال منهم — : إنه شعر . فقال الوليد بن المغيرة منكراً عليهم : لقد عرضت ما يقرؤه محمد على أقراء الشعر : هزجه ورجزه وكذا وكذا ، فلم أره يشبه شيئاً من ذلك . أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟ . . .

ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف على الذى يعلله النحويون فى ذوات الواو والياء والهمز والمد والقصر . فكتبوا ذوات الياء بالياء ، وذوات الواو بالواو ، ولم يصوروا الهمزة إذا كان ما قبلها ساكناً فى مثل " الخبء " و " الدفء " و " الملء " فصار ذلك كله حجة ، وحتى كره من العلماء ترك اتباع المصحف من كره » .

فابن فارس يذهب إذن إلى تقرير معرفة بعض العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام بالكتابة معرفةً دقيقة ، ثم يذهب إلى أبعد من هذا حين يقرر معرفتهم بعلوم اللغة وقواعدها وعروضها ؛ ويرد على من يذهب إلى استحداث هذه العلوم بعد الإسلام بدهر — رداً يغنينا عن أن نتصدى نحن له . ومع أن ابن فارس قد قيد كلامه هذا بقوله : « فإنا لم نزعم أن العرب كلها : مدراً ووبراً ، قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها ، وما العرب فى قديم الزمان إلا كنحن اليوم : فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءه . . . » ، نقول : مع أن ابن فارس قيد كلامه وحصر معرفة العرب بهذه العلوم فى أهل المدر والبيئات المتحضرة ، إلا أننا ، فضلاً عن ذلك ، نستبعد أن يكون العرب ، حتى أهل المدر منهم ، قد عرفوا النحو والعروض من حيث هما علمان لهما مصطلحات وقواعد ، بالمعنى الذى عرفه المسلمون بعد ذلك . والأرجح أن ابن فارس يقصد أن العرب كانوا يعرفون من أمر النحو ومن أمر العروض وعيوب القافية ما يستطيعون به أن يميزوا الصحيح من الخطأ ، وما أصبح بعد ذلك أساساً لعلمى النحو والعروض . فإن كان ابن فارس يعنى هذا الذى قدمناه ، فإننا نحب أن نضيف إلى ما أورد أمثلةً أخرى تسند أمثلته وتقويها .

فمن أمثلة ما ذكره عن معرفة الجاهليين بالعروض ما أورده ابن سعد والزمخشرى فى حديث إسلام أبى ذر الغفارى[١] ، وذلك قول أبى ذر : « قال لى أخى أنيس : إن لى حاجةً بمكة . فانطلق ، فراث ، فقلت : ما حبسك ؟ قال : لقيت رجلاً على دينك يزعم أن الله أرسله . قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : ساحر كاهن شاعر . وكان أنيس أحد الشعراء فقال : والله لقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلا يلتئم على لسان أحد . . »

ومثل ثان لمعرفتهم بالعروض وعيوب القافية ، ما ذكره أبو عبيدة قال[٢] : « حدثنى أبو عمرو بن العلاء قال : فحلان من الشعراء كانا يقويان : النابغةُ وبشر بن أبى خازم : فأما النابغة فدخل يثرب فغُنِّى بشعره ، ففطن فلم يعد إلى إقواء . وأما بشر فقال له سوادةُ أخوه : إنك تقوى . فقال له : وما الإقواء ؟ . » وفى رواية أخرى « فقال له أخوه سمير : أكفأت وأسأت . فقال : وما ذاك ؟ » .

فقد كان القوم إذن يعرفون الإكفاء والإقواء ، وإن جهله أحدهم أو بعضهم فاحتاج إلى من يذكّره به ويعرّفه إياه .

ومثل ثالث : تلك القصة التى جرت بين النابغة الذبيانى وحسان بن ثابت[٣] ولا يعنينا منها إلا قول النابغة لحسان حين أنشده قصيدته التى فيها :

لَنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ فى الضُّحَى وأَسْيَافُنا يَقْطُرن من نَجْدَةٍ دَمَا

قال النابغة : « أقللت جفانك وأسيافك ! » وذلك لأن « أسيافاً » جمع لأدنى العدد ، والكثير « سيوف » ، و « الجفنات » لأدنى العدد ، والكثير « جفان » . فهل كان النابغة يعرف جموع القلة وجموع الكثرة ؟ لست أدرى لم ننكر عليه ذلك بالمعنى الذى أوضحناه ، إلا أن يكون إنكارنا ضرباً من ضروب « تجهيل الجاهلية » الذى أسلفنا الإشارة إليه .

---

(١) الطبقات الكبير ٤/١ : ١٦١ – ١٦٢ ، والفائق ١ : ٥١٨ .
(٢) المرزبانى ، الموشح : ٥٩ .
(٣) الموشح : ٦٠ .

فإذا كان القوم ، أو بعض القوم ، يعرفون الكتابة وبعض ضروب المعرفة الأخرى فأين تراهم تعلموها ؟ أتناقلوها تناقلاً شفهياً عابراً من غير أن يقصدوا إلى تعلمها قصداً ، ومن غير أن يعمدوا إلى معرفتها عمداً ؟ أم أخذوها عن معلمين كانوا منقطعين إلى تعليمها فى أماكن خاصة أُعِدَّتْ لتلقّى هذه الضروب من المعرفة ؟

أما وجود المعلمين فى الجاهلية فأمر ثابت منصوص عليه فى وضوح لا يقبل الشك ، فقد عقدت بعض المصادر العربية فصلاً خاصاً أثبتت فيه جريدة بأسماء المعلمين فى الجاهلية والإسلام[1] . فمن هؤلاء المعلمين فى الجاهلية : عمرو ابن زُرَارة ، وكان يسمَّى كذلك الكاتب ؛ وغيلان بن سلمة بن مُعَتِّب ، جاهلى أسلم يوم الطائف ، — والطائف هى التى أخرجت ، بعد غيلان ، يوسف بن الحكم الثقفى ، وابنه الحجاج بن يوسف المعلمين فيها ، وشهرة الطائف ، وقبيلة ثقيف خاصة ، بالكتابة وإتقانها منذ الجاهلية ، دعت عمر بن الخطاب إلى أن يجعل كَتَبَةَ المصحف من قريش وثقيف ، ودعت عثمان بن عفان إلى أن يقول : « اجعلوا المُمْلِىَ من هذيل والكاتب من ثقيف » . بل إن هذه المصادر لتذكر أن بشر بن عبد الملك السكونى لم يمنعه شرفه ، ولا كونه أخا أكيدر صاحب دومة الجندل ، من أن يكون معلماً فى الجاهلية .

وأما تعلم الكتابة فى مدارس خاصة بهذا الغرض فأمر لا يقلّ عن سابقه يقيناً وثباتاً ، فقد ذكر ابن سعد والطبرى[2] أن جفينة — وكان نصرانياً من أهل الحيرة ظئراً لسعد بن أبى وقاص — أقدمه للصلح الذى بينه وبينهم ، وليعلم بالمدينة الكتابة .

وذكر البلاذرى نقلاً عن الواقدى أنه[3] : « كان الكتاب فى الأوس

(١) ابن حبيب ، المحبر : ٤٧٥ ؛ وابن رسته ، الأعلاق النفيسة : ٢١٦ .
(٢) الطبقات ٣/١ : ٢٥٨ ؛ وتاريخ الطبرى (مصر) ٥ : ٤٢ .
(٣) فتوح البلدان (مصر) : ٤٧٩ .

والخزرج قليلاً ، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية ، وكان يعلمه الصبيان بالمدينة فى الزمن الأول ، فجاء الإسلام وفى الأوس والخزرج عدة يكتبون » .

وذكر الطبرى أنه[١] « حين نزل خالد بن الوليد الأنبارَ رآهم يكتبون العربية ويتعلمونها » . وقال ياقوت[٢] : إن خالد بن الوليد لما خرج إلى عين تمر وجدوا فى كنيسة صبياناً يتعلمون الكتابة فى قرية من قرى عين التمر يقال لها النُّقَيْرة ، وكان فيهم حُمران مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه .

وقال أمية بن أبى الصلت يمدح بنى إياد[٣] :

قَوْمٌ لَهُمْ ساحَةُ العراق إذا سَارُوا جَميعًا والقِطُّ والقَلَمُ

وذكروا كذلك أن عدى بن زيد العبادىّ حين نما « وأيفع طرحه أبوه فى الكُتَّاب »[٤] حتى حذق العربية .

وكما كانت الكتابة فى الجاهلية تُدَرَّس وتُعلَّم فى الكُتَّاب ، كانت للعلم مجالس تعقد فتُتَدارس فيها الأخبار والأشعار والأنساب . قال ابن عباس رضى الله عنه[٥] : « كانت قريش تألف منزل أبى بكر رضى الله تعالى عنه لخصلتين : العلم والطعام ، فلما أسلم أسلم عامة من كان مُجالسه » .

وكان فى الجاهلية من ينصب نفسه لتعليم الأخبار وقصص التاريخ ، فيقصده من يقصده يستمليها ويكتبها ، وقد أنبأنا النبأ اليقين بذلك كتاب الله ، قال تعالى[٦] :

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِى تُمْلَى عَلَيْه بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

---

(١) تاريخ ٤ : ٢٠ .
(٢) معجم البلدان (نقيرة) .
(٣) ابن هشام ، السيرة ١ : ٤٨ .
(٤) الأغانى ٢ : ١٠١ .
(٥) الجاحظ ، البيان والتبيين ٤ : ٧٦
(٦) سورة الفرقان : ٥ .

وذهب المفسرون والمؤرخون إلى أن هذه الآية نزلت فى بعض من كان يقول ذلك ، مثل : النضر بن الحارث ، الذى « كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فدعا فيه إلى الله تعالى ، وتلا فيه القرآن ، وحذّر فيه قريشاً ما أصاب الأمم الخالية — خلفه فى مجلسه إذا قام ، فحدثهم عن رستم السنديد ، وعن اسفنديار ، وملوك فارس ، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً منى ، وما حديثه إلا أساطير الأولين ، اكتتبها كما اكتتبتُها »[١] .

فقد كان إذن فى الجاهلية معلمون يعلمون القراءة والكتابة وضروباً من العلم ، منها : أخبار الأولين وقصص التاريخ ؛ وقامت فى البيئات الجاهلية المتحضرة مثل : مكة والمدينة والطائف والحيرة والأنبار وغيرها — مدارس يتعلم فيها الصبيان الكتابة العربية .

٣

ولشيوع الكتابة فى الجاهلية أمثلة أخر كثيرة ، لعل من أنصعها بياناً ماأورده الجهشيارى[٢] ، وابن عبد ربه[٣] ، والمسعودى [٤] ، من ذكر أسماء الذين كتبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد جعلوهم مراتبَ ، وقدّروهم منازل : فكُتّاب يكتبون بين يديه صلى الله عليه وسلم فيما يعرض من أموره وحوائجه ، وآخرون يكتبون بين الناس المداينات وسائر العقود والمعاملات ، وآخرون يكتبون أموال الصدقات ، وكاتب يكتب خرْص الحجاز[٥] ، وآخر يكتب مغانم رسول

(١) ابن هشام ، السيرة ١ : ٣٨٣ — ٣٨٤ .
(٢) كتاب الوزراء والكتاب : ١٢ — ١٤ .
(٣) العقد ٤ : ٢٤٦ .
(٤) التنبيه والإشراف : ٢٤٥ — ٢٤٦ .
(٥) الخرص (بفتح الخاء) : حزر ما على النخل من الرطب تمراً (أى تقديره) ؛ وكم خرص أرضكم (بكسر الخاء) ، أى : ما خرص فيها . فالمصدر بالفتح ، والاسم بالكسر .

الله صلى الله عليه وسلم ، وثالث يكتب إلى الملوك ويجيب رسائلهم ويترجم بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، وكتاب آخرون يكتبون الوحى . ثم يعقب المسعودى بعد أن ينتهى من ذكر أسماء هؤلاء الكتاب واختصاصهم بقوله : « وإنما ذكرنا من أسماء كُتَّابه صلى الله عليه وسلم من ثبت على كتابته ، واتصلت أيامه فيها ، وطالت مدته ، وصحت الرواية على ذلك من أمره ، دون من كتب الكتاب والكتابين والثلاثة إذ كان لا يستحق بذلك أن يُسمَّى كاتباً ويضاف إلى جملة كُتَّابه » .

فأى شيوع نرجوه للكتابة أكثر من أن يبلغ الكاتبون من الكثرة منزلةً تجعلهم يتخصصون فى أنواع ما يكتبون ، يستقل كل فرد منهم أو كل جماعة بضرب واحد ؟ وما أكثر هؤلاء الكتاب الذين يورد المسعودى ماشاء من أسمائهم ثم يقول إنه أغفل تسمية الذين كتبوا الكتاب الواحد والكتابين والثلاثة إذ كانوا لا يستحقون بذلك أن يُسَمَّوْا كتابًا !! إن هذه الكثرة فى عدد الكاتبين هى التى دعت عمر بن الخطاب إلى أن يقول[1] : « لا يُمْلِيَنَّ فى مصاحفنا إلا غلمانُ قريش وثقيف » ، ودعت كذلك عثمان بن عفان إلى أن يقول : « اجعلوا المملى من هُذَيل والكاتبَ من ثقيف » . إذ لو كانت الكتابة قليلة بين العرب لقبل عمر وعثمان من أى كاتب أن يكتب ، فحسبهما أن يعثرا على كاتب ، ولما كان لهما هذا المجال للانتقاء والاختيار .

وعلى ضوء ما قدمنا نستطيع أن نفهم فداء الأسرى فى بدر حين أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لمن كان كاتباً من الأسرى أن يفدى نفسه بتعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة والقراءة[2] . إذ لا ريب أن هذا الإذن لم يكن منصبًّا على حالة فردية ، وإنما يدلّ على أن هؤلاء الكاتبين من الأسرى كانوا جماعات .

ثم ما قيمة هذه الكتب التى كان يكتبها رسول الله صلى الله عليه وسلم للأفراد

---

(١) ابن فارس ، الصاحبى : ٢٨

(٢) ابن سعد ، الطبقات ٢/١ : ١٤

والقبائل يؤمِّنهم فيها — إذا لم يكن القوم يعرفون القراءة حتى يتم للمُؤَمَّن هدفُه من بلوغ الأمن عند من يتعرض له[١] .

وكانت الكتابة فى الجاهلية شرطاً لا بد منه للعربى ليكون ذا مكانة فى قومه . فقد كان من يحسن العوم والرمى والكتابة يُسمَّى كاملاً[٢] ؛ وقد زاد بعضهم أن الكامل لابد أن يكون — مع معرفته العوم والرماية والكتابة — شاعراً شجاعاً[٣] . وهذه الخصال ، متفرقةً ، كثيرةٌ شائعةٌ بين القوم آنذاك ، وإن كانت ، مجتمعةً ، أقل من ذلك شيوعاً وكثرة . فكم كان فى العرب آنذاك من شاعر ! وكم كان فيهم من شجاع ! وكم كان فيهم من رام ! وكم كان فيهم ممن يعرف العوم ؛ فلِمَ تكون الكتابة وحدها — من بين هذه الخصال كلها — عزيزةً نادرة؟ ولم لا نقول — كما قلنا فى الخصال الأخرى — : وكم كان فى العرب آنذاك من كاتب ! ثم إذا كانت الكتابة شرطاً لا بد منه ليكون المرء من الكَمَلة ، فلِمَ لا يكون الساعون إلى الكمال كثيرين ؟

٤

ولم يكن العربى يكتفى بمعرفة الكتابة العربية وحدها ، بل لقد تجاوز — فيما يبدو — هذه المرحلة الأولى من تعلم الكتابة ، واضطرته أحوال معاشية تجارية ، وأخرى فكرية ثقافية ، إلى أن يتعلم كتابة اللغات الأخرى . فقد مرّ بنا أن عدىّ ابن زيد العبادىّ تعلم فى الكتّاب الخط العربى ثم الخط الفارسى « فصار أفصح

---

(١) انظر مثلا كتابه صلى الله عليه وسلم لبنى زهير بن أقيش فى ابن سعد ١/٢ : ٣٠ ، وكتابه إلى ماعز البكالى فى ابن سعد ٧ : ٣١

(٢) ابن سعد ٣/٢ : ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٤٨ وغيرها .

(٣) أبو الفرج الأصفهانى ، الأغانى (ط . دار الكتب) ٣ : ٢٥

الناس وأكتبهم بالعربية والفارسية ، ثم انتقل إلى بلاد فارس فأصبح كاتباً بالعربية ومترجماً فى ديوان كسرى »[١]. وكذلك كان لَقِيطُ بن يَعْمُرَ الإيادىُّ كاتباً بالعربية ويحسن الفارسية ، فكان من أجل ذلك مترجماً فى ديوان كسرى . وكان ورقة بن نوفل « يكتب الكتاب العبرانى فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب »[٢] . وكان عبد الله بن عمرو بن العاص كثير العناية بكتب أهل الكتاب [٣] ، وكان يقرأ بالسريانية[٤] . وزيد بن ثابت تعلَّم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتابة العبرانية[٥] والسريانية[٦] والفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسن [٧]. ويبدو أن كتب أهل الكتاب ، سواء أكانت مترجمة إلى العربية أم مكتوبة بغيرها من اللغات ، كانت تلقى من العناية لدى بعض العرب ما يحملهم على مدارستها ؛ ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما ذكره خالد بن عُرْفُطَة قال[٨] : كنت جالساً عند عمر ، إذ أُتِىَ برجل من عبد القيس ، سكنه بالسوس ، فقال له عمر : أنت فلان بن فلان العبدى ؟ قال : نعم . قال : وأنت النازل بالسوس ؟ قال : نعم . فضربه بقناة معه . فقال الرجل : ما لى يا أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر : اجلس . فجلس ، فقرأ عليه « بسم الله الرحمن الرحيم ، الـر ، تلك آيات الكتاب المبين ، إنا أنزلناه قرآنا عربيًّا لعلكم تعقلون ، نحن نقص عليك أحسن القصص » إلى « لمن الغافلين ». فقرأها عليه ثلاثاً ، وضربه ثلاثاً . فقال له الرجل : ما لى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أنت الذى نسخت كتاب دانيال ؟ قال : مرنى بأمرك أتَّبعْه . قال : انطلق

---

(١) الأغانى ٢ : ١٠١ – ١٠٢ .
(٢) الأغانى ٣ : ١٢٠ .
(٣) ابن حجر ، فتح البارى ١ : ١٨٤ ؛ وأبو نعيم ، حلية الأولياء ١ : ٢٨٥ .
(٤) ابن سعد : الطبقات ٢/٤ : ١١ ؛ وابن قتيبة ، المعارف : ١٢٥ .
(٥) البلاذرى ، فتوح البلدان : ٤٧٩ .
(٦) السجستانى ، كتاب المصاحف : ٣ .
(٧) المسعودى ، التنبيه والإشراف : ٢٤٦ .
(٨) الخطيب البغدادى ، تقييد العلم : ٥١ .

فامحه بالحميم والصوف الأبيض ، ثم لا تقرأه ولا تقريه أحداً من الناس — فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنهكنّك عقوبة[١]. ثم قال له : اجلس . فجلس بين يديه ، فقال : انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ، ثم جئت به فى أديم ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا فى يدك يا عمر ؟ قال : قلت : يا رسول الله كتاب انتسخته لنزداد به علماً إلى علمنا . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرت وجنتاه . . .

وكما كان بعض العرب يعرفون اللغات الأخرى ويكتبونها فقد كان بين الأقوام الأخرى من يعرف العربية ويكتبها ، فقد كان بعض اليهود فى المدينة يعرف الكتابة العربية [٢] ، وكان فى مصر من يكتب العربية كذلك[٣] ، كما كان فى بلاط كسرى كتاب ومترجمون يكتبون العربية ويترجمون منها إلى غيرها من اللغات ، ومن تلك اللغات إلى العربية .

ولم يكن الرجال وحدهم هم الكاتبين القارئين ، وإنما كان بعض النساء كذلك يكتبن[٤] ، ومنهن : الشفاء بنت عبد الله العدوية ، من رهط عمر بن الخطاب ، « وكانت الشفاء كاتبة فى الجاهلية » ؛ وهى التى علمت الكتابة حفصةَ بنت عمر زوج الرسول الكريم .

* * *

(١) النهك : المبالغة فى العقوبة .
(٢) ابن قتيبة ، المعارف : ١٩٢ ؛ والبلاذرى ، فتوح البلدان : ٤٧٩ .
(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها : ٤٧ .
(٤) البلاذرى ، فتوح البلدان : ٤٧٧ — ٤٧٨ .

٥

وحقيق بنا ، ونحن نتحدث عن الكتابة فى الجاهلية وشيوعها ، ألا نغفل الإشارة إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى ذكرت الكتابة . أما الآيات الكريمة التى تضمنت الإشارة إلى معرفة الجاهلية العربية بالكتابة معرفة واسعة عميقة ، فحسبنا أن نقتصر على ذكر ثلاث منها ، والحق أن قيمة هذه الآيات لا تقتصر على وضوح دلالتها ، وإنما تتجاوز ذلك إلى قيمتها التاريخية إذ أنها وثيقة أولى لا سبيل إلى التشكيك فيها .

أما الآية الأولى فقد أشرنا إليها من قبل فى معرض حديثنا عن مجلس العلم فى الجاهلية ، إذ أنها تُبين عن أن بعض الجاهليين كانوا يدوّنون الأخبار والقصص والتاريخ ، وأن هناك من كان يملى هذه الموضوعات فى مجالسه ، قال تعالى [١] :

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ، فهى تُمْلَى عليه بُكْرَةً وأَصِيلاً ﴾.

والآية الثانية تُبين عن أن عرب الجاهلية كانوا يطالبون الرسول بآيات ومعجزات تقنعهم بنبوته ، ومن هذه الآيات والمعجزات ، أن ينزل عليهم كتاباً من السماء يقرءونه ، قال تعالى [٢] :

﴿ وقالوا لن نُؤْمِنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأَرْضِ يَنْبُوعاً ... أو يكونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أو تَرْقَى فى السَّماء ، ولن نؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حتى تنَزِّلَ علينا كتاباً نقْرَؤُهُ . قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هلْ كنتُ إلَّا بَشَرًا رَسُولاً ﴾.

وفى الآية الثالثة يشير تعالى إلى أن هؤلاء العرب مكابرون ، وسيشكون فى هذا الكتاب ولو نزل عليهم فى صورة مادية يرونها ويلمسونها . قال تعالى [٣] :

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ٥ .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ٩٠ – ٩٣ .
(٣) سورة الأنعام : آية : ٧ .

﴿ولو نَزَّلْنا عليك كتاباً فى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بأَيْدِيهِمْ لقال الذين كَفَرُوا إنْ هذا إلا سِحْرٌ مُبِين﴾ .

أما الأحاديث فكثيرة ، متضاربة فى ظاهرها ، تناولها علماء الحديث والفقه بالبحث ، وسنعود إليها فى مكان آخر حين نتحدث عن نشأة التدوين فى الفصل التالى . وحسبنا الآن أن نشير إلى كتاب « تقييد العلم » للخطيب البغدادى ؛ فقد قسم المؤلف كتابه أقساماً ، عرض فى أحدها الأحاديث الناهية عن الكتابة ، وعرض فى قسم آخر الأحاديث المبيحة للكتابة الحاثة على تقييد العلم ، ثم خلص من هذا وذاك إلى ما يراه فى هذا الموضوع فيقول[1] : « فقد ثبت أن كراهة من كره الكتاب من الصدر الأول ، إنما هى لئلا يضاهَى بكتاب الله تعالى غيره ، أو يُشْتَغل عن القرآن بسواه ، ونُهِيَ عن الكتب القديمة أن تُتَّخَذ ، لأنه لا يُعْرَف حقها من باطلها وصحيحها من فاسدها ، مع أن القرآن كفى منها ، وصار مهيمناً عليها . ونُهِيَ عن كَتْب العلم فى صدر الإسلام وجِدَّته لقلة الفقهاء فى ذلك الوقت ، والمميزين بين الوحى وغيره ، لأن أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا فى الدين ، ولا جالسوا العلماء العارفين ، فلم يُؤْمَن أن يلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن ، ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلام الرحمن » .

فالخطيب البغدادى إذن إنما يرجع سبب النهى عن الكتابة فى الحديث النبوى إلى « قلة الفقهاء فى ذلك الوقت » ، ولم يرجعها إلى قلة الكاتبين أو إلى أن العرب والصحابة كانوا أميين كما ذهب كثير من الذين يلقون الكلام إلقاءً عامًّا لا تحقيق فيه ولا تدقيق . بل إننا لنزيد على ذلك فنرى أن هذه الأحاديث نفسها الناهية عن الكتابة إنما تدلّ على وجود الكتابة وشيوعها آنذاك شيوعاً جعل الرسول الكريم ينهاهم عن كتابة الحديث . ولولا ذاك لكان فى غنى عن هذا النهى .

---

(١) الخطيب البغدادى ، تقييد العلم : ٥٧

الفصل الثانى

موضوعات الكتابة وأدواتها

موضوعات الكتابة فى الجاهلية :

١

وصلنا — بعد الذى قدمنا من شواهد وأدلة — إلى مفصل من الأمر نطمئن عنده إلى أن الكتابة كانت شائعة عند عرب الجاهلية شيوعاً يكفى لأن ينفى عنهم ما ألحقه بهم تاريخنا الأدبى من وصمة الجهل والأمية . ولعلنا فى غنى عن أن نقرر أننا — فى حكمنا هذا بشيوع الكتابة فى الجاهلية — لا نملك الوسيلة التى تحدّد لنا مدى هذا الشيوع . ولعلى لا أجانف الحق إذا ذكرت أن التاريخ لم يحفظ لنا هذه الوسيلة عند سائر الأمم التى سبقت عرب الجاهلية أو عاصرتهم أو تلتهم . فعلم الإحصاء علم حديث النشأة لم نعرفه إلا فى عصرنا الحديث ، وبغيره لا سبيل إلى القطع الجازم فى مدى شيوع الكتابة عند أية أمة من أمم الأرض [1] . وحكمنا على عرب الجاهلية لا يختلف عن حكمنا على الإغريق أو

---

(١) لقد أدرك الباحثون فى هذا الضرب من الموضوعات كثرة العقبات التى تعترض سبيلهم فيقول بول مونرو Paul Monroe فى مقدمة كتابه The Educational Renaissance of The Sixteenth Century « إنه لمن الشاق العسير أن يحاول الإنسان أن يحصل على معلومات دقيقة عن النشاط التعليمى فى العهود الماضية وبخاصة ما يتعلق بتفاصيل عن الحياة المدرسية » . وقد أورد الدكتور أحمد شلبى هذا القول فى كتابه « تاريخ التربية الإسلامية » (ط . دار الكشاف ١٩٥٤ ص : ١) ثم عقب عليه بقوله : « وقد لمست أن ما قرره بول مونرو عن صعوبة الحصول على هذه المادة فيما يتعلق بالتعليم فى أوربا ، ينطبق تمام الانطباق على النظم التعليمية عند المسلمين » .

فإذا كانت هذه الصعوبة قائمة عند المسلمين بعد أن كثر العلم وشاعت الكتابة وانتشرت المدارس ، وإذا كانت كذلك قائمة عند الأوربيين ، فما أحرى أن تكون قائمة عند دراستنا لهذا الموضوع فى العصر الجاهلى .

البابليين أو الفينيقيين أو المصريين القدماء فى إبان حضارتهم . فهل كانت الكتابة شائعة عند الإغريق والفينيقيين والمصريين القدماء؟ أحسب أنْ نعم . وهل كان شيوعاً عامًّا يشمل كل فرد فى تلك الأمم ؟ أو كان تعميميًّا غالباً يشمل الكثرة الكاثرة منها ؟ سؤال لا سبيل إلى القطع فيه ، ولكنّ المنطق المادى لتاريخ أدوات الكتابة وآلاتها يجعلنا نرجح أن الشيوع العام الشامل أو التعميمى الغالب عسيرُ المنال فى مثل تلك الأطوار التاريخية . بل ما لنا نُبعد والأمثلة قريبة بين أيدينا ؟ فهل الكتابة شائعة الآن فى البلاد العربية ؟ لا ريب أنها كذلك ، وأمثلة شيوعها واضحة فى هذه الجامعات والمعاهد العالية ، والمدارس المختلفة ، والمطبوعات والمنشورات والصحف ؛ فهل شيوعها عام شامل لكل فرد ، أو هو تعميمى غالب يشمل الكثرة الكاثرة ؟ الحق أنه لا هذا ولا ذاك . ومع أننا نفتقد الإحصاء الدقيق إلا أن المعروف أن شيوع الكتابة فى البلاد العربية ، لعصرنا هذا ، لا يشمل إلا نسبة ضئيلة من قُطّان هذه البلاد تتراوح بين عشرين وثلاثين لكل مائة . أما الثمانون أو السبعون الباقون من كل مائة فما زالوا بعيدين عن أن تصل إليهم معرفة الكتابة . ومع أن هذه النسبة للكاتبين نسبة ضئيلة إلا أن عددهم كبير ، فهم — على قلتهم — يُعدُّون بالملايين .

فنحن إذن لا نقصد بشيوع الكتابة بين عرب الجاهلية أنّ كل عربى آنذاك كان كاتباً ، بل لا نقصد أن الكثرة الغالبة كانت كاتبة ، وإنما نقصد أن الكتابة كانت أمراً معروفاً مألوفاً شائعاً عند قومنا آنذاك ، كما كانت الأمية شائعة منتشرة ؛ وأن عدد الكاتبين كان كبيراً ، كما كان عدد الأميين كبيراً . أما تحديد العدد وتحديد النسبة فأمران لا سبيل لنا ولا لغيرنا إلى بيانهما .

بقى أمران يتم بهما هذا الفصل ، أولهما : استقراء الموضوعات التى كان عرب الجاهلية يكتبونها ، وثانيهما : الكشف عن أدوات الكتابة وآلاتها آنذاك .

٢

أما موضوعات الكتابة فى العصر الجاهلى فقد كانت — فيما يبدو لنا من استقرائنا — كثيرة متنوعة ، فقد كان القوم آنذاك يكتبون كثيراً من شؤون حياتهم وألواناً متعددة من الموضوعات التى يفرضها عليهم نشاطهم العملى أو العلمى أو الوجدانى . ومع اعترافنا بأن استقراءنا ناقص — بسبب إغفال المصادر العربية هذا اللون من النشاط العلمى فى الجاهلية — فقد وصلنا إلى أمور نراها جديرة بالذكر والتسجيل . وسنسردها هنا غير مراعين فى ترتيبنا لها تقديم الأهم على المهم ، ولا الأكثر على الكثير ، لأن الحكم على أهمية هذه الموضوعات أو كثرتها حكم لا نملك الآن وسائله .

وأول هذه الموضوعات التى كانوا يدوّنونها : الكتب الدينية : — ونحن لا نشك فى أن أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، كانت كتبهم مدوّنة بين أيديهم يتلونها ، وأن هذه الكتب لم تكن نسخاً قليلة العدد موقوفة على الرهبان والأحبار وحدهم ، وإنما كانت مصاحف كثيرة يتداولها أهل هاتين الديانتين ، حتى إن المسلمين بعد فتح خيبر وجدوا مصاحف فيها التوراة فجمعوها ثم ردوها على اليهود [١] .

وقد مرّ بنا أن ورقة بن نوفل « كان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب » [٢] . ومع أن هذا النص يشير إلى أن التوراة والإنجيل كانا مكتوبين بالعبرية أو السريانية [٣] ، وأن بعض العرب كان يقرأهما بهذه اللغة فإنه — مع ذلك — لا ينفى أن هذين الكتابين كانا يكتبان بالعربية ، وأن بعض العرب كان يقرأهما بهذه اللغة . فنحن نعلم أن قبائل عربية

---

(١) المقريزى ، إمتاع الأسماع : ٣٢٣

(٢) الأغانى (دار الكتب) ٣ : ١٢٠ .

(٣) يذكر الأب لويس شيخو عند حديثه عن كتابة ورقة بالعبرانية أن « عبرانية ذلك العهد هى الآرامية أو السريانية » انظر كتابه « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » ص : ١٥٧ .

كاملة كثيرة العدد كانت قد تهودت أو تنصرت[١] . فهل كان هؤلاء العرب لا يقرأون كتبهم الدينية ؟ أو هل كانوا يقرأونها باللغة العبرية أو بغيرها من اللغات ؟ وهل من المعقول أن نفترض أن هؤلاء العرب كانوا ، حين يتهودون أو يتنصرون، يشترط فيهم أن يتعلموا العبرية أو الآرامية ؟ الأقرب إلى المعقول أن نفترض أنهم كانوا يقرأون كتبهم الدينية مترجمة إلى لغتهم العربية . وليس هذا فى الحق فرضاً أو استنتاجاً لا تدعمه النصوص ، وإنما هو نتيجة أملتها علينا — مع سلامة المنطق — شواهد من الروايات :

فى حديث سُويد بن الصامت أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لعل الذى معك مثل الذى معى ! فقال : وما الذى معك ؟ قال سويد : مجلة لقمان[٢] — يريد كتاباً فيه حكمة لقمان [٣]. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها على . فعرضها عليه، فقال له : إن هذا لكلام حسن والذى معى أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى ، هو هدى ونور [٤] .

وقد مر بنا حديث خالد بن عُرفُطة حين كان جالساً مع عمر بن الخطاب فأتى برجل من عبد القيس نسخ كتاب دانيال ، فضربه عمر وقال له : انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض ، ولا تقربه أحداً من الناس ، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنهكنك عقوبة . ثم قال عمر : انطلقت أنا فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب ، ثم جئت به فى أديم ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هذا فى يدك يا عمر ؟ قلت : يا رسول الله كتاب

---

(١) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب : ٤٥٧ — ٤٥٨ .

(٢) الزمخشرى ، الفائق ١ : ٢٠٦ .

(٣) لسان العرب (جلل) .

(٤) ابن هشام، السيرة ٢ : ٦٨ .

انتسخته ، لنزداد به علماً إلى علمنا . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى احمرت وجنتاه[١] .

وقال عمرو بن ميمون الأودىّ[٢] : كنا جلوساً بالكوفة فجاء رجل ، ومعه كتاب ، فقلنا : ما هذا الكتاب ؟ قال : كتاب دانيال . فلولا أن الناس تحاجزوا عنه لقُتِل ، وقالوا : أكتاب سوى القرآن !

وقال عمر بن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم[٣] : إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا ، أفترى أن نكتب بعضها ؟ فقال : أمُتَهَوِّكون أنتم كما تَهَوَّكَتْ اليهود والنصارى ؟

وقال مُرّة[٤] : بينما نحن عند عبد الله بن مسعود إذ جاء ابن قرة بكتاب قال : وجدته بالشام ، فأعجبنى فجئتك به . فنظر فيه عبد الله ثم قال : إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب ، وتركهم كتابهم . ثم دعا بطست فيه ماء فمائه فيه ثم محاه . فقال مُرّة[٥] : أما إنه لو كان من القرآن أو السنة لم يمحه ولكن كان من كتب أهل الكتاب .

يفهم من هذه الأخبار والأحاديث أن هذه الكتب كانت مكتوبة بالعربية لغة القوم ، وإلا فهل كان سويد بن الصامت يحمل معه مجلة لقمان وهى مكتوبة بغير العربية ؟ وهل قرأها على رسول الله بتلك اللغة وفهمها رسول الله ؟ ثم هل كان هذا الرجل العربى من عبد القيس قد نسخ كتاب دانيال من لغة غير عربية ؟ وهل نهاه عمر أن يقرأه وأن يقرئه أحداً من الناس بتلك اللغة غير العربية ؟ وهل كان ذلك شأن عمر حينما نسخ كتاباً من كتب أهل الكتاب فأغضب رسول الله ؟ ثم هذا الكتاب الذى جاء به ابن قرة من الشام « فنظر فيه » عبد الله بن

---

(١) تقييد العلم : ٥١ — ٥٢ .
(٢) تقييد العلم : ٥٦ — ٥٧ .
(٣) الفائق ٣ : ٢١٨ .
(٤) تقييد العلم : ٥٣ .
(٥) سنن الدارمى ١ : ١٢٣ .

مسعود ثم محاه لأنه لم يكن من القرآن أو السنة وإنما كان من كتب أهل الكتاب — أترى عبد الله بن مسعود نظر فيه وعرف ذلك وهو مكتوب بغير العربية ؟

فلعل القوم كانوا يكتبون الكتب الدينية بالكتابة العربية كما كانوا يكتبونها بغير العربية .

ومن الشعر الجاهلى الذى يشير إلى معرفة عرب الجاهلية بهذه الكتب الدينية قول خُزَز بن لوذان[١] :

وكذاكَ لا خَيْرٌ ولا شَرٌّ على أَحَدِ بدائمْ
قد خطَّ ذلك فى الزُّبُو رِ الأَوَّليـات القدائمْ

ومنه قول امرىء القيس[٢] :

أَتَتْ حِجَج بَعْدى عليها فأَصبحتْ كَخطِّ زَبُورٍ فى مَصاحفِ رُهْبان

وقول السموءل يصف اليهود[٣] :

وبقايا الأَسْباطِ أسباطِ يعقو بَ دِراسِ التوراةِ والتابوت

وقول النابغة يمدح الغساسنة النصارى ويذكر الإنجيل[٤] :

مجلَّتُهم ذاتُ الإله ودينُهم قويمٌ فما يَرجُون غيرَ العواقب

---

(١) لسان العرب (حتم) ، وانظر خزانة الأدب ٣ : ١١ حيث يذكر أن خزز بن لوذان السدوسى جاهلى .

(٢) ديوانه ط . هندية سنة ١٩٠٦ ص : ١٢٥ .

(٣) ديوانه (ط . شيخو) ص : ١٢

(٤) ديوانه (خمسة دواوين سنة ١٢٩٣) ص: ٨، ويروى فى عجز البيت : « خير العواقب » برفع « خير » خبر « ما يرجون » .

٣

ولعل الموضوع الثانى الذى كانوا يكتبونه ، حريصين على كتابته ماوسعهم الحرص ، هو هذه العهود والمواثيق والأحلاف التى يرتبطون بها فيما بينهم أفراداً وجماعات . قال الجاحظ[١] : « كانوا يدعون فى الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيماً للأمر ، وتبعيداً من النسيان» . وقد ورد ذكر هذه العهود المكتوبة فى الشعر الجاهلى ، قال الحارث بن حلزة اليشكرى فى شأن بكر وتغلب[٢] :

واذكُرُوا حِلْفَ ذِى المَجازِ وما قُدِّمَ فيه ، العُهُودُ والكُفَلاءُ[٣]
حَذَرَ الجَوْرِ والتَّعدِّى، وهل يَنْـ ـقضُ ما فى المهارق الأَهْوَاءُ؟

وذكر الجاحظ أنه « لا يقال للكتب : مَهارق ، حتى تكون كتب دين أو كتب عهود وميثاق وأمان » .

ومن الشعر الجاهلى الذى تذكر فيه هذه المهارق قول الأعشى[٤] :

رَبِّى كَرِيمٌ لا يُكَدِّر نِعْمَةً وإذا يُنَاشَد بالمَهَارق أَنْشَدَا

وربُّه هذا إنما يعنى به سيداً كريماً متفضلاً عليه — كما يتضح من البيت السابق لهذا البيت — والمهارق هنا قد تعنى الكتب الدينية ، فيصف هذا السيدَ بالتدين وبأنه يلبى داعى الدين إلى صلة المحروم وإعطاء المحتاج ، وقد تعنى المهارقُ كتبَ العهود والأحلاف ، فيكون معنى البيت أن هذا السيد الكريم لا يخفرُ ذمتهُ ولا ينقض عهده ، وإنما يفى بما عاهد عليه ، فإذا ما ذكّره بهذه العهود المكتوبة فى المهارق بادر إلى المحافظة عليها والوفاء بها .

---

(١) الحيوان ١ : ٦٩ — ٧٠

(٢) شرح المعلقات للتبريزى : ٢٦٨ — ٢٦٩ ، وقد شرح التبريزى البيتين بقوله : إن كانت أهواؤكم زينت لكم الغدر والخيانة بعد ما تحالفنا وتعاقدنا ، فكيف تصنعون بما هو فى الصحف مكتوب عليكم من العهود والمواثيق والبينات فيما علينا وعليكم ؟

(٣) الكفلاء : الرهائن .

(٤) ديوانه : قصيدة : ٣٤ ، بيت : ١٣

ومن أوضح الشعر الجاهلى الذى يذكر هذا الضرب من تسجيل الأحلاف والعهود : قول درهم بن زيد الأوسىّ يُذكّر الخزرج ما بينهم من عهود مكتوبة على الصحف [١] :

وإنَّ مـــا بيننـــا وبينكمُ حين يُقال: الأَرحامُ والصُّحُفُ

وقول قيس بن الخطيم [٢] :

لمـــا بدت غُدْوَةً جِباهُهُمُ حَنَّتْ إلينا الأَرحامُ والصُّحُفُ

يعنى بالصحف : العهود والمواثيق والأحلاف المسجلة فى الصحائف .

ومن الأحلاف التى كتبت فى الجاهلية حلف خزاعة ، بين عبد المطلب ابن هاشم جدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجال من خزاعة ، وكتب لهم الحلف أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وعلقوا الكتاب فى الكعبة [٣] ؛ وقد جاء خزاعةُ رسول الله يوم الحديبية بكتاب جده فقرأه عليه أبىّ بن كعب [٤] .

وقد زعم أبو حنيفة الدينورى [٥] أن عمر بن إبراهيم من ولد أبرهة بن الصباح ملك حمير أرسل إلى الكرمانى نسخة حلف اليمن وربيعة الذى كان بينهم فى الجاهلية . ثم أورد نص هذا الحلف .

ومن أشهر هذه العهود والمواثيق : صحيفة قريش التى تعاقدوا فيها « على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم . فلما اجتمعوا لذلك كتبوه فى صحيفة ، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم [٦] » .

---

(١) ديوان حسان بن ثابت . مخطوط فى مكتبة أحمد الثالث بإسطنبول ، رقم ٢٥٣٤ ؛ وميكرو فيلم فى معهد المخطوطات ، ورقة : ٢٠ .

(٢) ديوانه : ١٩ .

(٣) ديوان حسان — مخطوطة أحمد الثالث ، ورقة : ١٥ — ١٦ .

(٤) محمد حميد الله ، الوثائق السياسية : ٥٠ وقد خرج هناك مصادره .

(٥) الأخبار الطوال (ط . السعادة ١٣٣٠ هـ) ص : ٣٣٦ .

(٦) ابن هشام ، السيرة ١ : ٣٧٥ — ٣٧٦ .

وكما كانوا يكتبون العهود والأحلاف بين الجماعات ، كانوا كذلك يكتبون العهود والمواثيق بين الأفراد . ومن أمثلة ذلك حديث عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال [١] : كاتبتُ أمية بن خلف كتاباً فى أن يحفظنى فى صاغيتى بمكة وأحفظه فى صاغيته بالمدينة [٢] .

ويبدو أنهم كانوا يسجلون كل أمر عامّ ذى بال يتصل بمجموع الناس أو بجماعات منهم — إذا أرادوا لهذا الأمر توكيداً أو أرادوا أن يشهدوا عليه الملأ — ولا يقتصرون فى ذلك على الأحلاف والمواثيق . فمن أمثلة هذه الأمور العامة التى كانوا يسجلونها ما قاله أبو جهل للعباس بن عبد المطلب حين شاعت فى مكة رؤيا أخته عاتكة بنت عبد المطلب ، قال [٣] : « يا بنى عبد المطلب ، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ! قد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال [٤] : انفروا من ثلاث . فسنتربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقّاً ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شىء ، نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذبُ أهل بيت فى العرب » .

ومما يتصل بكتابة العهود والمواثيق والأحلاف كتابة كتب الأمان ، وربما كانت أقل من سابقتها إذ أنها لا تصدر إلا فى حالات لا تتكرر كثيراً . فمن ذلك كتاب النعمان الذى أرسله إلى الحارث بن ظالم وهو فى مكة يؤمّنه [٥] ، فلما ذهب إليه الحارث ودخل عليه قال : أنعم صباحاً أبيت اللعن . قال النعمان : لا أنعم الله صباحك . فقال الحارث : هذا كتابك ! قال النعمان : كتابى والله ما أنكره أنا كتبته لك . . .

---

(١) الزمخشرى ، الفائق ٢ : ٢٦

(٢) الصاغية : هم الذين يصغون إلى المرء و يميلون إليه ، أى : جماعته .

(٣) ابن هشام ، السيرة ٢ : ٢٥٩ — ٢٦٠ ؛ وانظر أيضاً ابن سعد ، الطبقات ٨ : ٣٠ ؛ والأغانى (دار الكتب) ٤ : ١٧٢ .

(٤) القائل هنا راكب رأته عاتكة فى نومها مقبلاً على بعير له حتى وقف بالأبطح .

(٥) الأغانى ١١ : ١٢٠ .

٤

وموضوع ثالث لعله أكثر هذه الموضوعات اتساعاً ، وألصقها بحاجات المرء وحياته المعاشية ، هو الصكوك التى كان عرب الجاهلية يكتبون فيها حساب تجارتهم وحقوقهم على غيرهم . وأوضح ما ورد فى ذلك كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لثقيف ، فقد جاء فيه[1] : « وما كان لهم من دَيْن فى رهن فبلغ أجله فإنه لواط منبراً من الله . وما كان من دَيْن فى رهن وراء عكاظ فإنه يقضى إلى عكاظ برأسه . وما كان لثقيف من دَيْن فى صحفهم اليوم الذى أسلموا عليه فى الناس فإنه لهم » .

ومن أغرب ما جاء فى هذه الصكوك ما ذكره ابن النديم قال[2] : « وكان فى خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم فى جلد أدم فيه : ذِكْر حَق[3] عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحِمْيَرِىّ من أهل وزل صنعا عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة ، ومتى دعاه بها أجابه ، شهد الله والملكان . قال : وكان الخط شبه خط النساء . »

ووجه الغرابة فى هذا النص أنه يوهم أن ابن النديم — أو الذى روى عنه ، إذ أن فى أول النص خرماً — رأى هذا الصك ، ولكن قوله بعد ذلك : على فلان ابن فلان الحميرى من غير ذكر للاسم ، يدعونا إلى الشك فى أنه رآه ، وإلى ترجيح أن غيره هو الذى رآه ثم نسى اسم المدين وهو يروى الخبر . ووجه ثان للغرابة أنه ينص فى أول الخبر أن الكتاب بخط عبد المطلب بن هاشم ، ولم يذكر فى الكتاب ما يدل على ذلك ، فكيف أتيح له أن يقطع بأنه بخطه ، وهل قوله

---

(١) الدكتور محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية : ١٦٠ وفيها مصادره .

(٢) الفهرست : ٧ — ٨ .

(٣) « ذكر حق » معناه « صك الدين » انظر مجالس ثعلب ١ : ٢٧ .

فى آخر الخبر : « وكان الخط شبه خط النساء » ناقض لقوله إنه بخط عبد المطلب؟ أو أنه يقصد إلى القول إن هذا الخط الذى هو خط عبد المطلب شبه خط النساء؟ فنحن إذن نضعّف ذلك الخبر على هذا الوجه الذى ورد عليه ، وإن كنا مع ذلك لا نستطيع أن نقطع بنفيه ، لأننا نرى أن الخبر فى جوهره : وهو أن ثمة صكًّا ما فيه حق لعبد المطلب على رجل حميرى — لا سبيل إلى الطعن فيه .

وقد كان كثير من القوم آنذاك تجاراً ، فكان من الطبيعى أن يكثر عندهم هذا الضرب من الكتابة يحفظون به حقوقهم أن تضيع ، حتى لقد كانت النساء التاجرات يلجأن إلى هذه الوسيلة ، شأنهن فى ذلك شأن الرجال . فقد روى أن عبد الله بن أبى ربيعة كان يبعث بعطر من اليمن إلى أمه أسماء بنت مخرِّبة ، وهى أم أبى جهل — فكانت تبيعه إلى الأعطية ، فذهبت إليها الرُّبَيِّع بنتُ مُعَوِّذ فى نسوة من الأنصار ليشترين منها العطر ؛ قالت الربيع : فلما جعلت لى فى قواريرى ، ووزنت لى كما وزنت لصواحبى ، قالت : اكتبن لى عليكن حتى . فقلت : نعم ، اكتب لها على الربيع بنت معوذ . . .[1]

وقد حفظ لنا الشعر الجاهلى ذكر هذا الضرب من الصحف التى يسجل فيها الدين ، قال عِلْباء بن أرقم بن عوف من بنى بكر بن وائل[2] :

أَخَذْتُ لِدَيْنٍ مُطْمَئِنٌّ صحيفةً وخالفت فيها كلَّ من جار أوظَلَمْ

وقال أبو ذؤيب الهذلىّ يصف كاتباً من اليمن يكتب دينه على رجل آخر يُثنى عليه الناس بالوفاء[3] :

عرفتُ الديارَ كرَقْمِ الدَّوا ةِ يَزْبُرُه الكاتبُ الحِمِيَرِىُّ

---

(١) الواقدى ، المغازى : ٦٥ ؛ وابن سعد ، الطبقات ٨ : ٢٢٠ .

(٢) الأصمعيات (برلين ١٩٠٢) ص : ٦٣ ، وانظر اسم الشاعر وبيتين من القصيدة فى معجم المرزبانى : ٣٠٤ .

(٣) ديوان الهذليين ١ : ٦٤ .

بِرَقْم ووَشْيٍ كما زخْرِفَتْ بِمِيشَمِيها المُزْدَهَاةُ الهَدِىُّ
أدانَ وأنبـــأَهُ الأَوَّلُـــو نَ أَنَّ المُدَانَ المَلِيُّ الوَفِىُّ
فنَمْنَمَ فى صُحُف كالرِّيَا طِ فيهنَّ إرْثُ كتابٍ مَحِىُّ

وثمة ضرب آخر من الصكوك ، وهى التى يسجل فيها ما كان يقطعه الأمير أو السيد للمتعرض لنواله ، وكان هذا الصك يُسمى : الوِصْر ، والإصر ، والأوصر ، والوَصَرَّة . ووصره : أقطعه أرضاً وكتب له الوِصْر[1] . قال عدى ابن زيد[2] :

فَأَيُّكُمْ لم يَنَلْهُ عُرْفُ نائِلِهِ دثْرًا سَواماً وفى الأَرياف أَوْصَارا

أى : أقطعكم وكتب لكم السجلات.

وذكر شاعر ، بعده ، هذا الضرب من الصكوك فقال — يشير إلى فرسه : صِدَام ، ويخاطب خاتمه[3] :

وما اتخذت صِداماً للمُكُوثِ بها ولا انْتَقَشْتُك إلا لِلْوَصرَّات

وهذا الضرب من الصكوك قد يسمى أيضاً القِط ، وجمعها : قطوط . قال الأعشى[4] :

ولا المَلِكُ النُّعْمانُ يومَ لَقِيتُهُ بإمَّتِهِ يُعْطِى القُطُوطَ وَيَأْفِقُ

أى : يدفع إلى الناس صكوكهم بما أقطعهم أو بما قسم لهم من جوائز .

وقال المتلمس لما ألقى الصحيفة المشهورة فى نهر الحيرة[5] :

---

(١) الزمخشرى ، أساس البلاغة (وصر) .
(٢) الزمخشرى ، الفائق ٣ : ١٦٦ ، والدثر : المال الكثير .
(٣) أساس البلاغة (وصر) ، وصدام : اسم فرسه .
(٤) ديوانه ق : ٣٤ ، ب : ١٣ ، والإمة : النعمة ؛ ويأفق : يطبع القطوط (أى : صكوك الجوائز) ويختمها .
(٥) ابن السيد البطليوسى ، الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب : ٩٣ .

وألقيتها بالثَّنى من جَنْبِ كافرٍ كذلك ألْقِى كلَّ قِطٍّ مُضَلِّلِ

وقد جاء ذكر القط أيضاً فى التنزيل الحكيم ، قال تعالى :

﴿ وقَالُوا : ربَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحِسَاب ﴾[1].

٥

وضرب رابع أحسبه لا يقصّر عن الضروب السابقة كثرةً واتساعاً وخطراً ، وهو كتابة الرسائل بين الأفراد ، يحمّلونها أخبارهم ، ويضمّنونها ما تتطلبه شؤون حياتهم . ومن يقرأ أخبار الجاهلية فى كتب الأدب أو كتب التاريخ يعجب لكثرة رسائلهم آنذاك ، ويكاد يلمس أن كتابة الرسائل فى الجاهلية أمر مألوف ميسور شائع فى شتى الشئون . وسنكتفى — توخياً للإيجاز — بذكر أمثلة قليلة ، ثم لا نثبت نصوصها بل نشير إشارة مقتضبة إلى موضوعها .

فمن رسائلهم التى كانوا يحمّلونها أخبارهم ما كتبه حنظلة بن أبى سفيان إلى أبيه — وكان أبو سفيان مع العباس بن عبد المطلب بنجران فى اليمن — فكتب حنظلة إليه يخبره بقيام محمد بن عبد الله يدعو إلى الله[2] .

ومنها كتاب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمرهم ، وكان كتابه إلى ثلاثة نفر : صفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، وعكرمة بن أبى جهل ، يقول فيه : إن رسول الله قد أذن فى الناس بالغزو ، ولا أراه يريد غيركم ، وقد أحببت أن يكون لى عندكم يد بكتابى إليكم[3] .

---

(١) سورة « ص » آية : ١٦ .
(٢) الأغانى (دار الكتب) ٦ : ٢٥٠ .
(٣) المقريزى ، إمتاع الأسماع : ٣٦٢ .

ومنها رسالة الوليد بن الوليد بن المغيرة إلى أخيه خالد بن الوليد ، وذلك أن خالداً خرج من مكة فراراً أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى عمرة القضية ، كراهةً للإسلام وأهله ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه الوليد، وقال : لو أتانا لأكرمناه ، وما مثله سقط عليه الإسلام فى عقله . فكتب بذلك الوليد إلى خالد أخيه ، فوقع الإسلام فى قلب خالد ، وكان سبب هجرته[١] .

وقدم على الحارث بن مارية الغسّانى الجفنى رجلان من بنى نهد بن زيد يقال لهما : حزن وسهل ابنا رزاح . وكان عندهما حديث من أحاديث العرب ، فاجتباهما الملك ، ونزلا بالمكان الأثير عنده ، فحسدهما زهير بن جناب الكلبى — وكان ينادم الحارث ويحادثه — فقال له إنهما عين عليه للمنذر الأكبر — جد النعمان بن المنذر — « وهما يكتبان إليه بعورتك وخلل ما يريان منك »[٢] .

وكانوا يكتبون الرسائل يطلبون فيها العون والنصرة ، ومن أمثلة ذلك : كتاب قُصىّ بن كلاب إلى أخيه ابن أمه رزاح بن ربيعة بن حرام العذرى يدعوه إلى نصرته[٣] ، وكتاب السموءل إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى يوصى بامرئ القيس لعله يمدّه بما يحقق له أمله[٤] .

وكان المسافرون النازحون يكتبون إلى أهلهم بما يعرض لهم من أمور . فهذه أم سلمة لما قدمت المدينة ، وذلك قبل زواجها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخبرتهم أنها بنت أبى أمية بن المغيرة ، فكذبوها ، وقالوا : ما أكذب الغرائب ! « حتى أنشأ ناس منهم للحج ، فقالوا : أتكتبين إلى أهلك ؟ فكتبت معهم . فرجعوا إلى المدينة فصدقوها »[٥] .

---

(١) نسب قريش : ٣٢٤ .

(٢) الأغانى (دار الكتب) ٥ : ١١٨ .

(٣) ابن هشام ، السيرة ١ : ١٢٤ ؛ وابن سعد ؛ الطبقات ١ : ٣٨ .

(٤) الأغانى (دار الكتب) ٩ : ٩٩ .

(٥) ابن سعد ، الطبقات ٨ : ٦٥ .

وكتب الزبرقان بن بدر إلى زوجته أن تحسن إلى الحطيئة وتستوصى به خيراً[١] .

وقد كانوا يبدأون كتبهم هذه بـ « باسمك اللهم » ، ويقال إن أمية بن أبى الصلت هو الذى علم أهل مكة ذلك فجعلوها فى أول كتبهم[٢] . فكانت قريش تكتب فى جاهليتها « باسمك اللهم » وكان النبى صلى الله عليه وسلم كذلك ، ثم نزلت سورة « هود » وفيها « بسم الله مجراها ومرساها » ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن يكتب فى صدر كتبه « بسم الله » ، ثم نزلت فى سورة « بنى إسرائيل » : « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » فكتب « بسم الله الرحمن » ثم نزلت فى سورة « النمل » : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » فجعل ذلك فى صدر الكتب إلى الساعة[٣] .

٦

وضرب سادس من الكتابة لا ندرى عنه إلا النزر اليسير ، ولكنا مع ذلك لا نستبيح إغفاله لأننا فى هذا الاستقصاء إنما نثبت كل ما عثرنا عليه ، وعسى أن يكمل غيرنا ما فيه من نقص ، أو يفصّل ما فيه من إيجاز . وهذا الضرب السادس هو : مكاتبة الرقيق . وذلك أن يتفق العبدُ وسيّده على قدر معلوم من المال يكون فى الغالب مساوياً لثمنه ، فإذا أداه لسيده عتق وأصبح حرًّا .

وأغلب الظن أن هذا الاتفاق كان يتم فى بعض الأحوال شفاهاً لا تسجيل فيه ، ولكنه كان فى حالات أخرى يسجل ويكتب ، فقد روى أن أبا أيوب

---

(١) الأغانى ٢ : ١٨٠ .

(٢) الأغانى ٣ : ١٢٣ .

(٣) الصولى ، أدب الكتاب : ٣١ ؛ وابن السيد البطليوسى ، الاقتضاب ١٠٣ – ١٠٤ .

الأنصارىّ ندم على مكاتبة مولاه أفلح ، فأرسل إليه فقال : إنى أحب أن ترد إلىَّ الكتاب ، وأن ترجع كما كنت . فقال لأفلح ولدُه وأهله : أترجع رقيقاً وقد أعتقك الله ؟ فقال أفلح : والله لا يسألنى شيئاً إلا أعطيته إياه . فجاءه بمكاتبته فكسرها[١] .

وكذلك قال بكار بن محمد : « مكاتبة أنس بن مالك سيرينَ الصك فى صحيفة حمراء عندنا : هذا ما كاتب عليه . . . ، قال بكار : الطينة التى فيها الخاتم وسط الصحيفة والكتاب حولها »[٢] .

والمرجح أن هذه المكاتبة لم تكن أمراً مستحدثاً فى الإسلام ، وإنما كانت من أمور الجاهلية التى أقرَّها الإسلام وثبَّتها ، وإنما كانت فى الجاهلية تتوقف على رغبة السيد أو المالك ، فقد يأذن لعبده أن يكاتبه وقد يمنعه . فلما جاء الإسلام فرض على المسلم أن يستجيب لعبده إذا أراد المكاتبة ، وذلك فى قوله تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم . . . »[٣]

ودليل وجود هذا الضرب من الكتابة فى الجاهلية ما تذكره كتب التفسير من أسباب نزول هذه الآية ، وذلك أنها نزلت فى غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له : صبح — وقيل صبيح — طلب من مولاه أن يكاتبه ، فأبى ، فأنزل الله تعالى هذه الآية فكاتبه حويطب[٤] . فقد طلب الغلام المكاتبة إذن قبل نزول هذه الآية ، وذلك امتداد لما ألفوه قبل الإسلام ، ولكن مولاه أبى عليه ، حتى إذا نزلت الآية كاتبه . وبذلك أصبحت المكاتبة نظاماً مُلزِماً فى الإسلام .

---

(١) ابن سعد ٥ : ٦٢ .
(٢) ابن سعد ٧ : ٨٧ .
(٣) سورة النور ، آية : ٣٣ .
(٤) تفسير القرطبى ١٢ : ٢٤٤ .

٧

وثمة موضوعات أخرى للكتابة فرعية جزئية ، آثرنا أن نجمعها معاً ونقرنها فى عقال واحد . فمنها : النقش فى الخاتم . والخاتم على أنواع :

(١) فمنها الخاتم الذى تختم به الرسائل ، وقد ورد ذكره فى الشعر الجاهلى ، فمن ذلك قول امرئ القيس [١] :

تَرَى أَثَرَ القَرْحِ فى جِلْدِهِ كَنَقْشِ الخَوَاتِمِ فى الجِرْجِسِ

والجرجس هنا : إما الطين الذى يختم به ، وإما الصحيفة نفسها .

وقال المخبل السعدى يذكر رجلاً أعطاه النعمان بن المنذر خاتمه — ويقال لخاتم الملك الحِلْق [٢] :

وأَعْطِىَ مِنَّا الحِلْقَ أَبْيَضُ مَاجِدٌ رَدِيفُ مُلوك ما تغبُّ نوَافِلُهْ

ويقال إن أول من ختم الرسائل وطبعها عمرو بن هند [٣] وذلك بعد الذى حدث من المتلمس فى صحيفته .

وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم من وَرِق نقش عليه « محمد رسول الله » [٤] ؛ وكذلك اتخذ الصحابة رضوان الله عليهم نقوشاً مختلفة [٥] .

---

(١) ديوانه (السندوبى) : ١٠٢ ، وقد ورد البيت فى الاقتضاب للبطليوسى ص : ٩٧ هكذا :

ترى أثر القرح فى جلدتى كما أثر الختم فى الجرجس

(٢) البطليوسى ، الاقتضاب : ٩٧ .

(٣) الاقتضاب : ١٠٤ .

(٤) الصولى ، أدب الكتاب : ١٣٩ ؛ والزمخشرى ، الفائق ٢ : ٧٢ — ٧٣ .

(٥) ابن سعد ، الطبقات ٣/١ : ١٩ — ٢٠ ، ١٥٠ ، ٢٨٠ ، ٣٠٠ ، وج ٦ : ٢٦ ، ٥١ ، ٩٦ ، ١٤٦ ، وج ٧ : ٥ ، ١١ ، ١٤ .

وكانت هذه النقوش إما كتابة عربية وإما علامات وصوراً [١].

(ب) ومن أنواع الخاتم : الطابع الذى تُطبع وتختم به أوعية الطعام أو الشراب ، قال الأعشى [٢] :

وَصَهْبَاءَ طَافَ يَهُودِيُّها وأَبْرَزَهـا وعليها خَتَمْ

ومن أسماء هذا الضرب من خاتم الطعام : الرَّوْسَم ، وهى خشبة مكتوبة بالنقر يختم بها الطعام والأكداس . والرواسيم كتب كانت فى الجاهلية [٣].

ومن أنواع النقش : الحفر والكتابة على الخشب ، فقد روى أن أبا سفيان حين أراد الخروج إلى أحُد امتنعت عليه رجاله . فأخذ سهمين من سهامه ، فكتب على أحدهما : نعم ، وعلى الآخر : لا ، ثم أجالهما عند هُبَل ، فخرج سهم الإنعام ، فاستجرّهم بذلك [٤] !

ومن تمام الحديث عن النقش أن نشير إلى موضوع آخر كانوا ينقشونه وهو : شواهد القبور على الحجارة والصخور . وقد مر بنا طرف من ذلك حين تحدثنا عن نشأة الخط العربى ، ونزيد عليه ما ذكره ابن النديم [٥] من أن حجراً عُثر عليه بمسجد السور عند قبر المريين حينما حسم السيل عن الأرض ، وفيه كتابة نقشها أسيد بن أبى العيص تشبه أن تكون شاهد قبر .

* * *

بقى موضوع أخير هو كتابة النسب والشعر والأخبار : وقد أخرنا الإشارة إلى هذا الضرب من موضوعات الكتابة ، لأننا نقصد إلى أن نخصّه وحده بحديث واف سنجعله موضوع الباب الثانى .

* * *

---

(١) ابن سعد ٦ : ٩٦ ، ١٤٦ ، وج ٧ : ٥ ؛ ويذكر الأستاذ جروهمان أنه عثر على ورقة بردى كتبها عمرو بن العاص نفسه وعليها خاتمه وهو صورة ثور هائج ، انظر :

Dr. A. Grohmann, From The World of Arabic Papyri, Cairo, 1952, P. 115.

(٢) ديوانه ق : ٤ ، ب : ١٠ .

(٣) لسان العرب والتاج (رسم) .

(٤) الفائق ٣ : ١٩٠ .

(٥) الفهرست : ٨ .

أدوات الكتابة فى الجاهلية :

١

سيتناول حديثنا عن أدوات الكتابة ثلاث نقط ، الأولى : المواد التى كانوا يكتبون عليها ، والثانية : المواد التى كانوا يكتبون بها ، والثالثة . أنواع كتابتهم .

أما المواد التى كانوا يكتبون عليها فضروب شتى ، منها :

الجلد : وكانوا يسمونه : « الرَّقّ » و « الأديم » و « القضيم » . والفرق بينها غير واضح من النصوص والروايات نفسها ، ولكن المعاجم تجعل « الرق » : الجلد الرقيق الذى يسوَّى ويرقق ويكتب عليه ؛ وتجعل « الأديم » : الجلد الأحمر أو المدبوغ ؛ وتجعل القضيم : الجلد الأبيض يكتب فيه . وقد ورد ذكرها كلها فى الشعر الجاهلى .

فى الرقّ : قول طرفة[١] :

كَسُطُورِ الرَّقِّ رَقَّشَـهُ بالضُّحَى مَرَقِّشٌ يَشِمُهْ

وقول معقل بن خويلد الهذلى[٢] :

وإنى كما قال مُمْلِي الكِتا بِ فى الرَّقِّ إذ خطَّه الكاتِبُ

وقول الأخنس بن شهاب التغلبىّ[٣] :

---

(١) ديوانه — شالون سنة ٩٠٠ ص: ٦٨ .
(٢) ديوان الهذليين ٣ : ٧٠ .
(٣) الآمدى ، المؤتلف والمختلف : ٢٧ .

لابنَةِ حِطَّانَ بنِ عَوْف مَنَـازِلٌ كَما رَقَّشَ العُنْوَانَ فى الرَّقِّ كاتبُ

وقول حاتم الطائىّ [١] :

أتَعْرِفُ أطلالاً ونُؤْياً مُهَدَّمًا كَخَطِّك فى رَقٍّ كتاباً مُنَمْنَما

وقد جاء ذكر « الرقّ » فى القرآن الكريم ، قال تعالى[٢]:

﴿ والطُّورِ وكِتابٍ مَسْطُورٍ فى رَقٍّ منْشُور ﴾ .

وفى « الأديم » : يقول المرقش الأكبر [٣] :

الدَّارُ وَحْشٌ والرُّسُومُ كَمَا رَقَّش فى ظَهْرِ الأَديم قَلَمْ

وقد ورد ذكر الأديم فيما رُوىَ لنا من كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم : « عن رافع بن خديج . . . فإن المدينة حرام ، حرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مكتوب عندنا فى أديم خولانىّ »[٤] . وذكر ابن سعد[٥] أن النبى صلى الله عليه وسلم أقطع العباس السلمىّ ركيةً بالدُّثينة ، قال أبو الأزهر : وكان نائل — حفيد العباس السلمى — نازلاً بالدُّثينة وكان أميرهم ، فأخرج إلىّ حقةً فيها كراع من أدَم أحمر فكان فيه ما أقطعه » . وكانوا يكتبون الوحى فى زمن رسول الله على الأديم « قال عثمان : . . . فأعزم على كل رجل منكم ما كان معه من كتاب الله شىء لما جاء به ،

---

(١) ديوانه (لندن) : ٢٣

(٢) سورة الطور ، آيات : ١ — ٣ .

(٣) البيان والتبيين : ٣٧٥ ؛ الأغانى ٦ : ١٢٧ ؛ معجم المرزبانى ٢٠١ .

(٤) مسند أحمد ٤ : ١٤١ ؛ وانظر تقييد العلم : ٧٢ .

(٥) الطبقات ٧ : ٥٤ .

وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن . . . »[١]، وذكر عمر بن الخطاب أنه انتسخ — على عهد رسول الله — كتاباً من أهل الكتاب ثم جاء به فى أديم[٢] . وكذلك كتب سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص ديناً على نفسه فى قطعة أديم ابتغاها عند خرّاز قريب من بيته[٣] .

وفى القضيم : يقول النابغة الذبيانى[٤] :

كَأَنَّ مجَرَّ الرَّامِسَاتِ ذُيُولَها عَلَيْه قَضِيمٌ نَمَّقَتْهُ الصَّوانِعُ

وقد ذكر شارح الديوان الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب أن القضيم هو الأديم المخروز ، ثم قال إن القتبى قال : القضيمة : الصحيفة البيضاء تقطع ثم ينقش بها النطع .

ويقول امرؤ القيس[٥] :

وَعَادَى عِداءً بيْنَ ثَوْرٍ ونَعْجَةٍ وَبَيْنَ شَبُوبٍ كالْقَضِيمَةِ قَرْهَبِ

ويقول زهير[٦] :

كَأَنَّ دِماءَ المُؤْسِداتِ بنَحرِها أَطِبَّةُ صِرْفٍ فى قَضِيمٍ مُسَرَّدِ

والقضيم : الجلد الأبيض ، فلعله شبه طرائق الدم بنحرها بطرائق جلد أبيض مكتوب عليه أو منقوش عليه باللون الأحمر .

وقد ورد أن الوحى كان يكتب لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على

---

(١) السجستانى ، المصاحف : ٢٣ — ٢٤ .
(٢) تقييد العلم : ٥٢ .
(٣) المصعب الزبيرى ، نسب قريش : ١٧٧ — ١٧٨ .
(٤) ديوانه (خمسة دواوين) ٥٠ . الرامسات : الرياح .
(٥) ديوانه (مطبعة هندية ١٩٠٦) : ٨٦ ، الشبوب والقرهب : الثور الفتى الكبير .
(٦) ديوانه (ثعلب) : ٢٣١ . المؤسدات : المغريات بالصيد . أطبة (مفردها : طبابة) : السيور والجلود . صرف : صبغ أحمر تصبغ به شرك النعال . المسرد : المخروز .

القُضُم ، قال الزهرى: قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن فى العسب والقضم والكرانيف [١] .

قال الزمخشرى فى تفسير الكلمة : القضم جمع قضيم ، وهى جلود بيض ، ثم استشهد ببيت النابغة الذى ذكرناه .

وربما كتبوا على جلد لم يُعَدّ للكتابة، وإنما تلجئهم الحاجة الملحة إلى أن يكتبوا عليه ، قال سعيد بن جبير « كان ابن عباس يملى علىّ فى الصحيفة حتى أملأها وأكتب فى نعلى حتى أملأها »[٢] .

٣

القماش : وهو إما حرير وإما قطن ، ويطلقون على الصحف إذا كانت من القماش: المهارق ، مفردها: المُهْرَق . قال الأصمعى[٣] « هو فارسى معرب ، وكان أصله خرّق حرير تصقل وتكتب فيها الأعاجم ، تسمى : مهركرد ، فأعربته العرب وجعلته اسماً واحداً فقالوا : مهرَق . . . وقال الأصمعى أيضاً: المهارق :كرابيس كانت تصقل بالخرز ويكتب فيها، فأراد: مهركرد، أى : صقل به » . والكرابيس جمع كرباس — بالكسر — : ثوب من القطن الأبيض ، معرب ، فارسيته بالفتح [٤] .

وقال التبريزى[٥] : « المهارق : الصحف ، واحدها : مهرق ، فارسى معرب ، خرزة يصقلون بها ثياباً كان الناس يكتبون فيها قبل أن يصنع

---

(١) الفائق ٢ : ١٥٠ ، والكرانيف (مفردها : كرنافة ، بضم الكاف وكسرها) : أصول السعف الغلاظ العراض اللاصقة بالجذع .

(٢) تقييد العلم:١٠٢ .

(٣) المفضليات (ليال) : ٢٥ .

(٤) القاموس (كرباس) .

(٥) شرح المعلقات : ٢٦٨ – ٢٦٩ .

القراطيس بالعراق »، وقال الزوزنى [١] : « المهارق : يأخذون الخرقة ويطلونها بشىء ثم يصقلونها ثم يكتبون عليها شيئاً » . وقال ابن السكيت[٢] : « المهرق : ثوب جديد أبيض يسقى الصمغ ويصقل ثم يكتب فيه » .

ويبدو لنا أن هذا الضرب من مواد الكتابة يحتاج إلى إعداد خاص فكان عزيزاً نادراً غالى الثمن ، ولذلك كانوا لا يكتبون فيه إلا الجليل من الأمر، قال الجاحظ[٣] : « لا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين أو كتب عهود وميثاق وأمان » .

وقد ورد ذكر المهارق فى الشعر الجاهلى ، فمن ذلك ما ذكرناه من بيتى الحارث بن حلزة فى معلقته :

واذكروا حِلفَ ذِى المَجَازِ وما ... قُدِّمَ فيه ، العُهودُ والكُفَلاءُ
حَذَرَ الجَوْرِ والتعدِّى ، وهل ... يَنْقُضُ ما فى المهارق الأَهواءُ

وقال الحارث أيضاً[٤] :

لمن الديارُ عَفَوْنَ بالحُبْسِ ... آياتُها كَمَهَارقِ الفُرْسِ

وقال الأعشى[٥] :

ربِّى كَريمٌ لا يُكَدِّرُ نِعْمَةً ... وإذا يُنَاشَدُ بالمَهَارقِ أَنْشَدا

وقال الأعشى أيضاً[٦] :

---

(١) المعلقات: ٢٠٠ – ٢٠١ .
(٢) ابن سيدة ، المخصص ١٣: ٨ – ٩ .
(٣) الحيوان ١ : ٦٩ – ٧٠ .
(٤) المفضليات : ٢٥ .
(٥) ديوانه ق ٣٤ ب ١٣ .
(٦) الصولى، أدب الكتاب : ١٠٦ ، ولم أجده فى ديوانه . والسملق (وزان جعفر): القاع الصفصف .

سَلَا دارَ لَيْلَى : هَل تُبِينُ فتَنْطِقُ ... وَأَنَّى تَرُدُّ القولَ بَيْضَاءُ سَمْلَقُ
وَأَنَّى تَرُدُّ القولَ دارٌ كأَنَّهـا ... لِطُولِ بِلاها والتَّقَادُمِ مُهْرَقُ

وقال شُتَيم بن خويلد الفزارى[1] :

تَسْمَعُ أصواتَ كُدْرِيِّ الفِراخ بهِ ... مثل الأعاجم تُغْشِى المُهرَقَ القَلَمَا

وقال الأسود بن يعفر :

سُطُورُ يَهُودِيَّيْنِ فى مُهْرَقَيْهِما ... مُجِيدَيْنِ مِن تَيْماء أوْ أهْلِ مَدْيَنِ

وقال سلامة بن جندل[2] :

لبس الروامسُ والجديدُ بِلاهما ... فَتَرِكْنَ مِثْلَ المُهْرَقِ الأَخْلاقِ

وقال سلامة أيضاً[2] :

لِمَنْ طَلَلٌ مثلُ الكِتابِ المُنَمَّقِ ... خَلَا عهدُهُ بين الصُّلَيْبِ فَمُطْرَقِ
أَكَبَّ عليـه كاتبٌ بدَوَاتِهِ ... وَحَادِثُه فى العَيْنِ جِدةُ مُهْرَقِ

٤

النبات — وأشهر أنواعه : العسيب ، وجمعه : عسب ، بضمتين — وهو السعفة أو جريدة النخل إذا يبست وكشط خوصها ، فمن الشعر الجاهلى الذى ورد فيه ذكر العسيب قول لبيد يصف كاتباً[4] :

---

(١) النقائض : ١٠٦ .
(٢) ديوانه : ١٥ .
(٣) ديوانه : ٥ .
(٤) ديوانه — الأول — ط . فينا سنة ١٨٨٠ ق ١٣ ب ٢ .

مُتَعَـوِّدٌ لَحِنٌ يُعِيدُ بكَفِّهِ قَلَمًا على عُسُبٍ ذَبُلْنَ وَبَانِ

وقول امرئ القيس [١] :

لِمَنْ طَلَلٌ أَبْصَرْتُه فَشَجَانِى كَخَطِّ الزَّبورِ فى العَسيب اليمانى

وقريب من العسيب : الكُرْنافة ، وجمعها : كرانيف ، وهى أصول السعف الغلاظ العراض اللاصقة بالجذع [٢] . وقد ورد أن الوحى كان يكتب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على العسب والكرانيف [٣] .

ومما يتصل بهذا الكتابةُ على الخشب ، والخشب على أنواع أيضاً ، منه :

الرحل : قال زيد بن ثابت : فاتبعتُ أجمع القرآن من الرقاع والأكتاف والأقتاب . . . [٤] . فالأقتاب : جمع قتب — بفتحتين أو بكسر فسكون — وهو الإكاف الصغير على قدر سنام البعير .

وقد رُوى لنا أيضاً أن المرقش بن سعد بن مالك كتب على رحل أبياتاً من شعره [٥] . وقد استمر الرحل أداة من أدوات الكتابة فى صدر الإسلام ، فهذا سعد بن سعد بن مالك — وهو أنصارىٌ شهد بدْراً — أوصى للنبى صلى الله عليه وسلم فكتب وصيته فى مؤخر رحله ، فأوصى له برحله وراحلته وخمسة أوسق من شعير . . . [٦] .

بل لقد قال سعيد بن جبير [٧] : كنت أسمع من ابن عمر وابن عباس الحديث بالليل فأكتبه فى واسطة رحلى حتى أصبح فأنسخه .

---

(١) ديوانه : ١٢٠ .
(٢) القاموس (كرب ، وكرناف) .
(٣) الفائق ٢ : ١٥٠ .
(٤) مصاحف السجستانى : ٢٠ .
(٥) المفضليات : ٤٥٩ — ٤٦٠ ، والأغانى ٦ : ١٣٠ .
(٦) ابن سعد ٣/٢ : ١٥١ .
(٧) تقييد العلم : ١٠٢ .

وواضح من هذه الأخبار أن الرحل لم يكن أداة ثابتة من أدوات الكتابة ، إنما كان مما يضطر إليه المرء اضطراراً حين لا يجد غيره يكتب عليه .

ومن أنواع الخشب التى كانوا يكتبون عليها : الروسم . وقد مر بنا أن الروسم خشبة مكتوبة بالنقر يختم بها الطعام والأكداس فى الجاهلية[١] .

ومن أنواع الخشب التى كانوا أحياناً يكتبون عليها أو يخطون علامات تميزها : السهام ، وقد مر بنا خبر أبى سفيان حين أراد الخروج إلى أحُد فامتنعت عليه رجاله فأخذ سهمين من سهامه ، فكتب على أحدهما : نعم ، وعلى الآخر : لا . ثم أجالهما عند هُبَل ، فخرج سهم الإنعام فاستجرّهم بذلك[٢] .

وقد استمروا يكتبون أحياناً على هذا الضرب من الخشب بعد ذلك ، فالحكم بن عبدل الشاعر كان يكتب حاجته على عصاه ويبعث بها مع رسله فلا يحبس له رسول ، ولا تؤخر له حاجة[٣] .

وقد رأيت كلمة « ألواح » تتردد فى بعض ما جمعت من أخبار ، منها : ما ذكره عبيد الله بن أبى رافع قال : كان ابن عباس يأتى أبا رافع فيقول : ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كذا ؟ ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم كذا ؟ ومع ابن عباس ألواح يكتب فيها[٤] .

ومنها ما قاله ابن أبى مليكة[٥] : رأيتُ مجاهداً يسأل ابنَ عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه ، فيقول ابن عباس : اكتب . قال : حتى سأله عن التفسير كله .

---

(١) تاج العروس (رسم) .
(٢) الفائق ٣ : ١٩٠ .
(٣) الأغانى ٢ : ٤٠٤ .
(٤) تقييد العلم : ٩١ — ٩٢ ، وانظر أيضاً ص : ١٠٩ .
(٥) الطبرى ، التفسير ١ : ٣١ .

ولست أدرى ما هذه الألواح ؟ أمن خشب هى ؟ أم من جلد ؟ أم أنها من عظم عريض ؟ أم لعلها من رصاص كما ذكر الفيروزبادى عن ألواح الرقيم [١] .

٥

العظام — وأشهر أنواع العظام التى كانوا يكتبون عليها : الكتف والأضلاع وكان يكتب عليها الوحى ، قال زيد بن ثابت[٢] « . . . فجعلت أتتبع القرآن من صدور الرجال ومن الرقاع ومن الأضلاع . . . » وقال زيد أيضاً[٣] : لما نزلت هذه الآية « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتف ، ودعانى ، وقال : اكتب . . . ويروى أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ثقل دعا عبد الرحمن بن أبى بكر فقال : ائتنى بكتف حتى أكتب لأبى بكر كتاباً لا يختلف عليه [٤] .

وكان صحابة رسول الله يكتبون كذلك على الكتف ، قال عمر بن الخطاب لابنه عبد الله[٥] : يا عبد الله ائتنى بالكتف التى كتبت فيها شأن الجدّ بالأمس . . . وعن هانئ قال[٦] : كنت عند عثمان رضى الله تعالى عنه ، وهم يعرضون المصاحف فأرسلنى بكتف شاة إلى أبىّ بن كعب فيها : « لم يتسن » و « فأمهل الكافرين » و « لا تبديل للخلق » . قال فدعا بالدواة

---

(١) القاموس (رقم)

(٢) أبو عمرو الدانى ، المقنع فى معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار (ط . الترقى بدمشق ١٩٤٠) ص : ٣ .

(٣) ابن سعد ١/٤ : ١٥٤ .

(٤) ابن سعد ١/٣ : ١٢٨ .

(٥) ابن سعد ١/٣ : ٢٤٦ و ٢٤٧ .

(٦) ابن فارس ، الصاحبى : ١٠ .

فمحا إحدى اللامين وكتب « لخلق الله » ، ومحا « فأمهل » وكتب « فمهّل » ، وكتب « لم يتسنه » ألحق فيها هاء .

واستمروا أيضاً يكتبون فى الكتف بعد ذلك بدهر : رُوىَ أن عمر بن أبى ربيعة وابن أبى عتيق كانا جالسين بفناء الكعبة إذ مرت بهما امرأة من آل أبى سفيان ، فدعا عمر بكتف فكتب إليها شعراً[١] . بل لقد بقى العظم مادة من مواد الكتابة حتى العصر العباسى الأول — فى النصف الأخير من القرن الثانى الهجرى — قال الشافعى[٢] . . . فكنت أجالس العلماء وأحفظ الحديث أو المسألة ، وكان منزلنا بمكة فى شِعْب الخَيْف ، وكنت أنظر إلى العظم يلوح ، فأكتب فيه الحديث أو المسألة ، وكانت لنا جرة قديمة ، فإذا امتلأ العظم طرحته فى الجرة .

وقال الشافعى كذلك[٣] : طلبت هذا الأمر عن خفة ذات يد ، كنت أجالس العلماء وأتحفظ ، ثم اشتهيت أن أدوّن ، وكان لنا منزل بقرب شعب الخَيْف ، وكنت آخذ العظام والاكتاف فأكتب فيها ، حتى امتلأ فى دارنا من ذلك حُبَّان .

٦

الحجارة : وقد مضى لنا من القول فى الكتابة والنقش على الحجارة والصخور ما حسبنا أن نشير إليه هنا إشارة عابرة مذكرين به ، فقد فصّلنا فيه الكلام فى موطنين ، الأول : عند حديثنا عن نشأة الخط العربى وتطوره ، والثانى : عند حديثنا عن موضوعات الكتابة . ونزيد على ما قدمنا

---

(١) الأغانى ٩ : ٢٤٠ .
(٢) ابن أبى حاتم ، آداب الشافعى ومناقبه : ٢٤ .
(٣) المصدر السابق : ٢٥ .

أن الكتابة والنقش على الحجر كانا يسميان : الوحى ، قال لبيد[١] :

فَمَدَافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّىَ رَسْمُهَـا خَلَقاً كما ضَمِنَ الوحِىَّ سِلَامُهَا

وقال زهير[٢] :

لِمَن الدِّيارُ غَشِيْتُهَا بالْفَـدْفَدِ كَالْوَحْى فى حَجَرِ المَسِيلِ المُخْلِدِ

وقال أيضاً[٣] :

لِمَنْ طَلَلٌ كالوَحْيِ عَافٍ مَنَازِلُهْ عَفَا الرَّسُّ مِنْهُ فَالرُّسَيْسُ فَعَاقِلُهْ

وكانت آيات القرآن تكتب — على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم — على حجارة رقيقة ، قال زيد بن ثابت حينما أمره أبو بكر أن يجمع القرآن[٤] : فجعلت أتتبعه من الرقاع والعسب واللخاف . واللخاف : حجارة بيض رقاق ، واحدته : لخفة ، بفتح اللام . قال ابن النديم[٥] « والعرب تكتب فى أكتاف الإبل ، واللخاف ، وهى الحجاة الرقاق البيض ، وفى العسب عسب النخل » .

ومن تمام الحديث عن النقش على الحجارة أن نشير إلى النقش والكتابة على البناء . فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدخل الكعبة يوم الفتح حتى أمر بالزخرف فمحى ، وأمر بالأصنام فكسرت — أراد النقوش والتصاوير[٦] . وقد روى كذلك أن ابن الكلبى أخذ بعض علمه بأنساب

---

(١) شرح المعلقات للتبريزى : معلقة لبيد . الوحى (بضم الواو وتشديد الياء) جمع ، مفردها الوحى (بفتح الواو وسكون الحاء) وهو : الكتابة . السلام : الحجارة ، واحدتها : سلمة (بفتح السين وكسر اللام) .

(٢) ديوانه (ثعلب) : ٢٦٨ . الفدفد : الأرض المرتفعة المستوية . المخلد : المقيم .

(٣) ديوانه : ١٢٦ .

(٤) الفائق ٢ : ١٥٠ .

(٥) الفهرست : ٣١ .

(٦) الفائق ١ : ٥٢٥ .

العرب مما وجده على جدران كنائس الحيرة[١] ، مما سنفصّله فى حديثنا عن تدوين الشعر الجاهلى فى الباب الثانى .

٧

الورق : وقد آثرنا أن نؤخر الحديث عن الورق ، وكان حقه التقديم ، وذلك لأن حديثنا عنه قد يطول ويتشعب . فمن المعروف المتداول عند المعنيين بمثل هذه الأبحاث أن الورق لم ينتشر استخدامه للكتابة إلا منذ أواخر القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، وذلك أن الجيوش الإسلامية انتصرت فى سنة ١٣٣ هجرية (٧٥١ م) بقيادة والى سمرقند — على إخشيد فرغانة الذى كان يناصره ملك الصين . وقد أسر المسلمون عشرين ألف رجل فيهم صينيون كانوا يعرفون صناعة الورق . ويقال إن الصينيين عرفوا هذه الصناعة منذ مطلع القرن الثانى الميلادى . فأدخل هؤلاء الأسرى صناعة الورق إلى العالم الإسلامى بعد أسرهم بسنوات قليلة ، ثم انتشرت بعد ذلك هذه الصناعة حتى دخلت أوربا بعد قرون[٢] .

فهذه الرواية التاريخية إذن لا تشير إلا إلى صناعة الورق ، ونحن إذا سلمنا بصحتها — وليس عندنا ما يضعّفها غير ما أورده ابن النديم من حديث عن الورق الخراسانى يذكر فيه تاريخ معرفة العرب به ، وهو حديث يشتمل على هذه الرواية التاريخية ، ولكنه يذكر معها أقوالاً أخرى متناقضة تجعلنا نتوقف عن قبول أحدها ، قال[٣] « فأما الورق الخراسانى فيعمل من الكتان ،

---

(١) الطبرى ، تاريخ ٢ : ٣٧ .

(٢) انظر لذلك :

Dr. A. Grohmann, From The World of Arabic Papyri, Cairo 1952, P. 51.

وكذلك دائرة المعارف البريطانية مادة Paper

(٣) الفهرست : ٣١ .

ويقال إنه حدث أيام بنى أمية ،وقيل فى الدولة العباسية ، وقيل إنه قديم العمل ، وقيل إنه حديث ، وقيل إن صُنَّاعاً من الصين عملوه بخراسان على مثال الورق الصينى . . . » — نقول إن هذه الرواية التاريخية عن الورق الخراسانى والصينى — على فرض صحّتها — لا تشير إلا إلى صناعة الورق ، ولا تعنى أن الورق لم يكن معروفاً قبل هذا التاريخ فى بلاد العرب — وإنْ لم يكن يُصْنع فيها . فإذا كانت بعض البلاد المجاورة للصين كالهند وجارتها بلاد فارس قد عرفتا الورق الصينى — سواء أكانت صنعته فى بلادها أم اجتلبته مصنوعاً من الصين — فليس ثمة ما يمنع أن يعرفه العرب فى جاهليّتهم ، وقد كانت صلاتهم التجارية وثيقة بفارس والهند بل بالصين نفسها . على أن هذا ليس فرضاً عقليًّا مجرداً حسبُ بل إننا عثرنا على ما نسترُوح منه أنه يدعم هذا الفرض :

فابن النديم يذكر أنه رأى أوراقاً يحسبها من ورق الصين بخط يحيى ابن يعمر[1] ، ويحيى بن يعمر توفى فى سنة ٩٠ للهجرة ، وقد يكون كتب هذه الأوراق قبل وفاته بسنوات ، وبذلك يكون العرب قد عرفوا الورق الصينى — على ما يروى ابن النديم — قبل أسر هؤلاء الصينيين بنحو نصف قرن على الأقل .

وليس عندنا ما نزيده على ما قدمناه عن الورق الصينى ، وإن كان لنا حديث طويل عن الورق بعامة . فكلمة « الورق » تتردد فى الشعر الجاهلى وأخبار صدر الإسلام ، وقد ذهب بعضهم إلى أنها تعنى الجلد الرقيق الذى يشبه فى رقته ورق الشجر ، وليس عندنا ما يدعم هذا المذهب ، وهو فى رأينا لا يعدو أن يكون استنتاجاً استنتجه من ذهب إليه بعد أن فرض أن العرب فى جاهليّتهم لم يعرفوا الورق . وهذا — كما نرى — فرض على فرض ، واستنتاج مبنىّ على استنتاج .

وسأعرض بعض ما عثرت عليه من أخبار الصدر الأول ومن الشعر الجاهلى

---

(١) الفهرست : ٦١ .

مما فيه ذكر للورق ، وسأبدأ برواية تتصل بعهد عثمان بن عفان يُفرَّق فيها بين الورق والأديم ، وبذلك يقوى ما ذكرناه آنفاً من أنهما شيئان لا شيء واحد . وذلك أن عثمان بن عفان عزم على كل رجل معه من كتاب الله شيء أن يذهب به إليه « وكان الرجل يجيء بالورقة والأديم فيه القرآن [١] » .

وقال عمرو بن نافع مولى عمر بن الخطاب [٢] « كنت أكتب المصاحف فى عهد أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، فاستكتبتنى حفصة بنت عمر مصحفاً لها . . . فلما بلغت إليها حملت الورقة والدواة » . وسئل ابن الحنفية عن بيع المصاحف فقال [٣] « لا بأس إنما تبيع الورق » . وكان مَطَر بن طهمان مولى علىّ بن أبى طالب يُعْرَف بمطر الورَّاق [٤] . وقال أبو عبيدة إن المهلب قال لبنيه فى وصيته [٥] « يا بَنِىَّ لا تقوموا فى الأسواق إلا على زَرَّاد أو وَرَّاق » .

وهذه أحاديث قد تطول ، ولا غَنَاء فى سردها ، وأهمها عندنا هو الخبر الأول الذى فُرِّق فيه بين الورق والأديم ؛ وسنذكر ثلاثة شواهد فيها ما يقوِّى الخبر الأول فى التفريق بين الجلد والورق . أما الأول فقول عبد الله بن عامر لمعاوية بن أبى سفيان حينما طلق هند بنت معاوية ، قال له [٦] : « فرأيت أن أردها إليك لتزوّجها فتى من فتيانك كأن وَجهَهُ وَرَقةُ مصْحَف » . وأما الثانى فقول حسان بن ثابت [٧] :

عَرَفْتُ دِيارَ زَيْنَبَ بالكَثِيبِ كخَطِّ الوَحْيِ فى الوَرَقِ القَشِيب

---

(١) المصاحف : ٢٣ — ٢٤ .
(٢) المصاحف : ٨٦ .
(٣) المصاحف : ١٧٥ .
(٤) المصدر السابق : ١٧٧ ، وانظر ترجمة مطر فى التهذيب ، وفى ابن سعد ٢/٧ / ١٩ .
(٥) الجاحظ ، الحيوان ١ : ٥٢
(٦) نسب قريش : ١٤٩ .
(٧) ديوانه (مطبعة النيل ١٩٠٤) : ١١ .

والثالث قول أبي ذؤيب [١] :

فَنَمْنَمَ فى صُحُفٍ كالريَا طِ فيهنَّ إرثُ كِتابٍ مَحِيُّ

فما نحسب أن ابن عامر كان يقصد إلى تشبيه وجه ذلك الفتى بالجلد ، وإلا لكان وجهاً صفيقاً متيناً !! ولكنه — فى رأينا — قصد إلى أن ذلك الوجه فى نضارته ورونقه وبهائه وصفائه ومائه ، وما شئتَ من هذه الأوصاف — يشبه الورقة ، ولا بد أن تكون هذه الورقة التى يشبَّه بها هذا الوجه فيها من هذه الصفات النضرة الصافية الرقيقة ما يصح معه التشبيه . ونرى كذلك فى وصف حسان للورق بأنه « ورق قشيب » ، وتشبيه أبي ذؤيب الصحف بأنها « كالرياط » ما يتسق مع ما قدمناه عن قول ابن عامر .

فقد استقام عندنا إذن أن الورق فى هذه الأمثلة كلها شيء آخر غير الجلد أو الأديم ، شيء أرقّ وأصفى ، فما عسى هذا الورق أن يكون ؟

إذا كنا ما زلنا فى شك من أمر معرفة الجاهليين بالورق الصينى أو الخراسانى بعد الذى قدمناه من حديث عنه ، فإننا نكاد نظن أن عرب الجاهليه قد عرفوا ورق البردى . فقد رُوى أن خالد بن الوليد كتب كتاب الأمان لأهل الشام فى سنة ٦٣٥ م على القرطاس[٢]. ويسمى ابن النديم ورق البردى القرطاسَ المصرى والطومار المصرى[٣] . والقرطاس وارد فى الشعر الجاهلى وأخبار الصحابة ، ولكننا لا نستطيع أن نقطع بأن المقصود بالقرطاس فيها كلها هو ورق البردى ، لأن من معانى القرطاس : قطعة من أديم تنصب للنضال فإذا أصابه الرامى قيل : قرطس [٤] .

---

(١) ديوان الهذليين ١ : ٦٤

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان (مصر) : ١٢٧ .

(٣) الفهرست : ٣١ .

(٤) القاموس واللسان (قرطس) .

فالقرطاس ، فى رأينا ، كلمةٌ عامةٌ تطلق على كثير من مواد الكتابة ومنها ورق البرْدىّ . ولعل من الأمثلة التى يرد فيها القرطاس بمعنى ورق البردىّ خاصةً قول طرفة يصف ناقته[1] :

وَخَدٍّ كقِرْطَاسِ الشَّآمِى وَمِشْفَرٍ كَسِبْتِ اليَمَانِى قِدُّه لم يُجَرَّدِ

قال الأعلم فى شرحه الديوان «وقوله: وخد كقرطاس الشآمى، شبه بياض خدّها ببياض القرطاس، ويقال : أراد أنه عتيق لا شعر فيه، وإنما قال: الشآمى ، لأنهم نصارى أهل كتاب ». وقال أبو زيد القرشى[2] : «شبه خدها بالقرطاس وهو الورق من جهة الشام» .

ونحن نرجح أنه أراد بالقرطاس هنا ورق البردى — لا الجلد — لأنه ذكره فى مقابل «السبت» وهو جلد البقر المدبوغ بالقرظ ، فحينما أراد تشبيه خدها شبهه فى نقائه وبياضه بالورق ، ثم شبه مشافرها بالجلد المدبوغ بالقرظ .

ولعل من الأمثلة التى يرد فيها القرطاس بمعنى الورق ما ذُكر من أن أبا بكر الصديق «كان جمع القرآن فى قراطيس» .

فنحن نرجح إذن أن المقصود بالورق وبالقرطاس — فى بعض أنواعه — ورق البردى . وحسبنا هذا القدر من الحديث عن الورق .

* * *

فها نحن نرى أن العرب لم يغادروا وسيلة يكتبون عليها إلا التمسوها ، سواء عندهم أن تكون قد أعدّت للكتابة وأن تكون عارضة طارئة . فكتبوا على ورق البردى ، والحرير الناعم ، والقطن المصقول ، والجلد الرقيق ، وكتبوا على السعف والخشب والعظام والحجارة ، بل لقد كتبوا حين ألجأتهم

---

(١) ديوانه ١٩ — ٢٠ . المشفر من البعير كالشفة من الإنسان . السبت : جلود البقر المدبوغة . القد : ما قد من الجلد ، وهو هنا : النعل نفسها . وخص اليمانى لأنهم ملوك ونعالهم أحسن النعال .

(٢) جمهرة أشعار العرب : ١٧٧ .

الضرورة على أكفهم ونعالهم ، قال سعيد بن جبير[١] « كنت أكتب عند ابن عباس فى صحيفتى حتى أملأها ، ثم أكتب فى ظهر نعلى ، ثم أكتب فى كفى » . وعن عبد الله بن حنش قال[٢] « رأيتهم يكتبون على أكفهم بالقصب عند البرّاء » . وقال معمر[٣] إن الزهرى ربما كتب الحديث فى ظهر نعله مخافة أن يفوته .

٨

ولقد كانت لهذه المواد المكتوبة أسماء عامة يطلقونها عليها ليدلوا على المكتوب وما كتب عليه معاً ، لا يخصصون بذلك نوعاً بعينه ، ولا يقصدون إلى ضرب منها بذاته . ومن أشهر هذه الألفاظ وأكثرها وروداً :

١ ــ الصحيفة : فنحن نعثر على هذه الكلمة فى القرآن الكريم ، وفى كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبار صحابته رضوان الله عليهم ، وفى الشعر الجاهلى ، ولكننا لا نستطيع أن نصرفها إلى مادة بعينها من هذه المواد التى عددناها للكتابة ؛ وإنما هى لفظة قد تدل على أىّ من هذه الأنواع ، فقد تكون جلداً أو قماشاً أو نباتاً أو حجراً أو عظماً أو ورقاً .

فى القرآن الكريم وردت ثمانى مرات كلها بصيغة الجمع « صحف[٤] » . وأما ورود هذه الكلمة فى كتب رسول الله والصحابة فيفوت الحصر ، ومن أمثلته ما جاء فى كتابه صلى الله عليه وسلم « بين المؤمنين والمسلمين من قريش

---

(١) تقييد العلم : ١٠٢ .
(٢) تقييد العلم : ١٠٥ .
(٣) المصدر السابق : ١٠٧ .
(٤) التكوير ١٠ ، الأعلى ١٨ ، ١٩ ، النجم ٣٦ ، عبس ١٣ ، طه ١٣٣ ، البينة ٢ ، المدثر ٥٢ .

وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم » . فقد تكررت فيه كلمة الصحيفة سبع مرات كلها بلفظ الإفراد[١] .

ومما وردت فيه من الشعر الجاهلي : أبيات لقيط[٢] وأبي ذؤيب[٣] وعلباء ابن أرقم[٤] وقيس بن الخطيم[٥] . وقد أشرنا إلى هذه الأبيات في مواطن سابقة .

٢ ــ الكتاب : وهي لفظة قد تكون أعمّ من الصحيفة ، وأكثر منها شيوعاً فيما نقرأ ، إذ أنها مصدر كالكتابة ، ولكنها أطلقت على الشيء المكتوب حتى كادت لا تنصرف إلا إليه . وقد وردت في القرآن الكريم إحدى وستين ومائتي مرة ، إفراداً وجمعاً[٦] . ووردت أيضاً في كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وحسبنا أن نشير إلى الكتاب نفسه الذي ذكرناه منذ قليل والذي كتبه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود فقد وردت فيه كلمة « الكتاب » مرتين . واللفظة من الكثرة والشيوع في كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبار صحابته بما لا مجال لتتبعه والاستكثار بسرد أمثلته .

أما في الشعر الجاهلي فقد جاءت في شعر لتميم بن أبيّ بن مقبل العامريّ قال[٧] :

منهنَّ معروف آيات الكتاب وقد تعتاد تكذب ليلى ما تُمَنِّينا

وقال لقيط بن يعمر الإياديّ[٨] :

---

(١) الدكتور محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية : ١ ــ ٧ .
(٢) الشعر والشعراء ١ : ١٥٢ .
(٣) ديوان الهذليين ١ : ٦٤ .
(٤) الأصمعيات : ٦٣ .
(٥) ديوانه : ١٩ .
(٦) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن من ص ٥٩٢ إلى ص ٥٩٥ .
(٧) جمهرة أشعار العرب : ٣١٨ .
(٨) مختارات ابن الشجري : ٧ .

هذا كتابى إليكم والنذير لكم لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا

وقال عَبيد بن الأبرص[١] :

لمن الدَّارُ أقفرت بالجَناب غيْرَ نُؤْيٍ وَدِمْنَةٍ كالكتاب

وقال عدىّ بن زيد[٢] :

تعْرِفُ أمْسِ مِنْ لَمِيسَ الطَّلَلْ مِثْلَ الكتاب الدارسِ الأَحْوَلْ

وقال عدى أيضاً[٣] :

ناشدْتَنا بكتاب الله حُرْمَتَنا ولم تَكُنْ بكتاب الله تَرْتَفِع

وقال سلامة بن جندل[٤] :

لمن طللٌ مثلُ الكتاب المُنَمَّقِ خلا عهده بين الصُّلَيْب فَمُطْرَقِ

وقال زهير[٥] :

يُوخَّرْ فيوضَعْ فى كتاب فَيُدَّخَرْ ليوم الحسابِ أو يُعجَّلْ فَيُنْقَمِ

٣ — الزبور : وجمعها زُبر . وقد يراد بها الكتاب الدينى ، ولكنها تطلق أيضاً على غيره من الكتب ، فمن الضرب الأول قول أمية :

وأبْرِزُوا بصَعِيد مُسْتَوٍ جُرُزٍ وأُنْزِلَ العرشُ والميزانُ والزُّبُرُ

---

(١) مختارات ابن الشجرى : ١٠٥ .
(٢) الأغانى ٢ : ١٥٣
(٣) شعراء النصرانية : ٤٧٢ .
(٤) ديوانه : ١٥ .
(٥) ديوانه (ثعلب) : ١٨

وقول امرئ القيس [١] :

أتت حِجَجٌ بعدى عليها فأصبحت كَخَطِّ زَبُورٍ فى مصاحفِ رُهْبان

وقول عمرو بن أحمر [٢] :

أم لا تُزال تُرَجِّى عيشةً أُنُفاً لم تُرْجَ قبلُ ولم يُكتبْ بها زبُرُ

ومن الضرب الثانى الذى لا إشارة فيه تخصصه بالكتاب الدينى وإنما يدل على مطلق الكتاب قول لبيد [٣] :

وجلا السيولُ عن الطلول كأنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أقْلامُها

وقول امرئ القيس [٤] :

لمن طلـــل أبصرته فشجانى كخط الزبور فى العسيب اليمانى

وقول لبيد أيضاً [٥] :

فنِعافِ صَارَةَ فالقَنَان كأنَّها زُبُرٌ يُرَجِّعُهـــا وَلِيدُ يَمَانِ

ومن الزبور اشتقوا الفعل : يزبر ، بمعنى : يكتب ، قال أبو ذؤيب [٦] :

عرفتُ الديارَ كرقم الدَّوا ةِ يَزبُرُها الكاتب الحِمْيَرِىُّ

وقد وردت الزبور فى القرآن الكريم فى تسعة مواطن [٧] كلها بمعنى

---

(١) ديوانه : ١٢٥ .
(٢) جمهرة أشعار العرب : ٣١٥ . أنف : بمعنى مستأنفة .
(٣) شرح المعلقات للتبريزى : ١٣٤ .
(٤) ديوانه : ١٢٠
(٥) ديوانه ق ١٣ ب ٢ .
(٦) ديوان الهذليين ١ : ٦٤ .
(٧) الأنبياء ١٠٥ ، الإسراء ٥٥ ، النساء ١٦٣ ، الشعراء ١٩٦ ، القمر ٤٣ ، ٥٢ ، النحل ٤٤ ، آل عمران ١٨٤ ، فاطر ٢٥ .

الكتاب الدينى ، وجاءت فى موطنين منها خاصةً بكتاب داود [1] ، وكان ورودها إفراداً وجمعاً .

٩

ذلك ما يُكتَب عليه ، أما ما يكتب به فسيدور حديثنا عنه على ثلاثة أمور : القلم ، والدواة ، والحبر .

١ — القلم : فالقلم حديثه طويل ، ولو أوردنا ما ذكره ابن قتيبة وابن النديم والصولى وابن السيد البطليوسى والقلقشندى فى وصفه وأنواعه لملأنا صفحات ، ونكون بذلك قد انحرفنا عن النهج الذى خططناه لأنفسنا منذ بدء هذا البحث ، واتكأنا على غيرنا حيث كان يجدر بنا ألا نتكئ إلا على استقصائنا وحده . فنحن إنما نؤرخ العصر الجاهلى ، وما كتبته هذه الكتب العربية عن مواد الكتابة عامٌّ لا يحدُّه عصر ، مطلق لا يقيده زمن ، وهو منصبٌّ على ما عرفوه من العصور الإسلامية . ومن الإخلال بمنهجنا أن نسحبه على العصر الجاهلى . ولذلك لم نورد فيما مضى من الحديث ، ولن نورد فيما سيستقبلنا منه ، إلا ما استنبطناه من الشعر الجاهلى ، أو من أحاديث الرسول وأخبار الصحابة ؛ وبذلك تضيق علينا رقعة البحث ، وتقلّ بين أيدينا مادته ، وقد تنقطع بنا المسالك ، ولكن هذا هو بحثنا ، وتلك هى طبيعته ، فلا معدى لنا عن أن نتقيد بهما .

والقلم فى الجاهلية كما تصفه هذه النصوص مصنوع من القصب يُقَطُّ ويقلم أو يُبرَى ثم يغمس فى مداد الدواة ويكتب به . وقد مر بنا قول عبد الله

---

(١) الإسراء ٥٥ ، النساء ١٦٣ .

ابن حنش [١] « رأيتهم يكتبون على أكفهم بالقصب عند البرَاء » . وأكبر ظنى أنهم كانوا يستخدمون ضرباً آخر من الأقلام يكتبون به — دون حبر — حينما تلجئهم الحاجة إلى أن يسجلوا بعض شؤونهم فى عجلة من أمرهم ، ودون أن يعدوا للأمر عدته ، فالشاعر الجاهلى الذى كان يحتضر فلم يجد وسيلة للكتابة إلا أن يتخذ من رحل قاتله صحيفة يكتب عليها ما كان يريد [٢] ، والصحابى الذى أوصى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب وصيته فى مؤخر رحله [٣] ، والتابعى الذى كان يسمع الحديث من بعض الصحابة فى الليل فيكتبه فى واسطة رحله حتى يصبح فينسخه [٤] — هؤلاء جميعاً لم يكونوا مُعِدِّين للكتابة أمرها ، ولم يكونوا متخذين لها أسبابها ، وليس مما يقبله العقل أن يكونوا فى مثل أحوالهم تلك يحملون معهم قصبهم المقطوط المبرى ودُوِيَّهم الملأى بالمداد ، وإنما كانوا — فيما أرجح — يكتبون بمادة تترك لونها أو أثرها على الرحل ، ولعلها مادة طباشيرية ، أو فحمية أو رصاصية ، وقد أشارت إحدى الروايات إلى أن قيسبة بن كلثوم السكونى كتب على خشبة رحل أبى الطمحان القينى بسكين. [٥] وكذلك الشأن فيمن كانوا يكتبون على الحجارة ، فقد كانوا ينقشون عليها نقشاً ، ويستخدمون فى نقشهم مواد صلبة ينحتون بها وينقشون .

وقد ورد ذكر القلم ، مفرداً وجمعاً ، بهذا المعنى الذى نقصده ، ثلاث مرات فى القرآن الكريم [٦] . وورد ذكره كذلك فى الشعر الجاهلى . قال عدىّ ابن زيد [٧] :

له عُنُقٌ مثلُ جِذْعِ السَّحُو قِ والأُذْنُ مُصْعَنَّةٌ كالقَلَم

---

(١) تقييد العلم : ١٠٥ .
(٢) المفضليات : ٤٥٩ — ٤٦٠ .
(٣) ابن سعد ٣/٣ : ١٥١ .
(٤) تقييد العلم : ١٠٢ .
(٥) الأغانى ١١ : ١٣١ .
(٦) العلق : ٤ ، القلم : ١ ، لقمان : ٢٧ .
(٧) سمط اللآلى : ٨٧٦ . السحوق من النخل : الطويلة . مصعنة : منصوبة محددة .

وقال عدىّ أيضاً [١]:

ما تبين العينُ من آياتها غيرَ نُؤْيٍ مثل خطٍّ بالقَلَمْ

وقال الزبرقان بن بدر [٢]:

هم يَهلِكُون ويبقى بعدُ ما صنعوا كأنَّ آثارهم خُطَّت بأقلام

وقد مرت بنا أبيات : أمية بن أبى الصلت [٣] ، والمرقش [٤]، وشُتَيم ابن خويلد[٥]، ولبيد [٦]، وفيها كلها ذكر القلم .

وربما سمى القلم : مِزْبراً . فقد رُوىَ أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه دعا فى مرضه بدواة ومزْبر ، فكتب اسم الخليفة بعده [٧]. قال الزمخشرى: المزْبر هو القلم؛ وأنشد الأصمعى :

* قد قُضِىَ الأَمْرُ وجفَّ المِزْبَرُ *

٢ ــ الدواة والمداد : وقد ورد ذكرهما كذلك فى الشعر الجاهلى ، قال عبد الله بن عنَمة[٨]:

فلم يَبْقَ إلا دِمْنَةٌ ومنــازلٌ كما رُدَّ فى خَطِّ الدواة مِدادُها

وقد مر بنا بيتان لأبى ذُؤَيب [٩] ولسلامة بن جندل[١٠]فيهما ذكر

---

(١) الأغانى ٢ : ١١٩ .
(٢) البيان والتبيين ٣ : ١٧٩ .
(٣) ابن هشام ١ : ٤٨ .
(٤) معجم المرزبانى : ٢٠١ ، والأغانى ٦ : ١٢٧ .
(٥) النقائض : ١٠٦ .
(٦) شرح المعلقات للتبريزى : ١٢٨ .
(٧) الفائق ١ : ٥٢٢ .
(٨) المفضليات : ٧٤٣ .
(٩) ديوان الهذليين ١ : ٦٤ .
(١٠) ديوانه : ١٥ .

الدواة . وكانوا أيضاً يسمون المداد « نِقْساً » ، قال حميد بن ثوْر[١]:

لِمَن الدِّيار بجانب الحُبْس كَخَطِّ ذى الحاجات بالنِّقْسِ

وكانوا أحياناً يمحون المكتوب بالمداد حين تنقضى حاجتهم منه ، ثم يستخدمون الصحيفة لكتابة شأن آخر من شؤونهم . ويسمون هذه الصحيفة التى يكتبون فيها ثم يمحونها ثم يكتبون فيها « طرساً »[٢] . وكانوا ربما محوا المداد بغسله بالماء ، فقد كان عبد الله بن مسعود إذا عرف أن فى مجلسه من يكتب حديثه يدعو بالكتاب وبإجانة من ماء فيغسله[٣] . وكذلك كان يفعل أبو موسى الأشعرى[٤] . وقد مر بنا قول عمر للرجل الذى كتب كتاب دانيال[٥]: « انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض» .

١٠

وصف الخط فى الجاهلية :

وقد كدت أجعل عنوان هذا الجزء من البحث « أنواع الخط فى الجاهلية » . ولكن أنَّى لنا أن نعرف أنواع هذا الخط ، والأمر فى أخبار الجاهلية على ما ذكرنا فى غير موطن من هذا الفصل ؟ أما ما ذكره ابن مقلة ونقله عنه ابن النديم[٦] وابن السيد البطليوسى [٧] من أنواع الخطوط ووصف الأقلام فلا يرقى إلى

---

(١) ديوانه : ٩٧ .
(٢) القاموس واساس البلاغة (طرس) ، والاقتضاب : ٩٣ ، والفائق ٢ : ٨١ .
(٣) تقييد العلم : ٣٩ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ .
(٤) المصدر السابق : ٤٠ .
(٥) المصدر السابق : ٥١ .
(٦) الفهرست : ٦ — ٧ .
(٧) الاقتضاب : ٨٧ — ٩٠ .

الجاهلية ، والقليل منه لا يعدو أن يكون إشارة عابرة إلى الخط فى العصر الأموى ، وإنما جُلُّ الحديث كان عن العصر العباسى . فلا معدى إذن عن أن أقصر عنوان هذا الجزء من البحث على « وصف الخط فى الجاهلية »، ولا معدى كذلك عن أن أعود إلى النهج الذى سلكته من قبل وهو استنطاق الشعر الجاهلى وأخبار صدر الإسلام .

ولقد وجدت مما بين يدىَّ من نصوص وروايات أن عرب الجاهلية كانوا يفتنُّون فى خطوطهم وكتاباتهم ، ويحبرونها ويذهبون فيها مذاهب من التجويد والإتقان . وكان هذا الخط المجوَّد المحبر المتقن يوصف بالترقيش والتنمنمة والرقم والوشم والتنميق . وقد أشرنا من قبل إلى بيت أبى ذؤيب الذى يصف فيه الكتابة فتبدو كأنما بلغت شأواً بعيداً فى الزينة والجمال حتى شبهها فى رقمها ووشيها بالعروس التى استكملت زينتها وبهاءها واستخفَّها الحسن والعجب [١] . وأشرنا كذلك إلى أبيات للأخنس بن شهاب التغلبى [٢] ، وحاتم الطائى [٣] ، وسلامة بن جندل [٤] يصفون فيها الكتابة بالترقيش والتنمنمة والتنميق .

ومما يدخل فى هذا الباب الإشارة إلى مهارة الكاتب وإجادته الخط وتعوده الكتابة ، قال لبيد [٥] :

مُتَعَوِّدٌ لَحِنٌ يُعِيدُ بكفِّهِ قَلَماً على عُسُبٍ ذَبُلْنَ وَبَانِ

وقال معاوية بن مالك بن جعفر [٦] :

فإنَّ لها منـــازلَ خاوياتٍ على نَمَلَى وقَفْتُ بها الرِّكابا

---

(١) ديوان الهذليين ١ : ٦٤ — ٦٥ .
(٢) المؤتلف والمختلف : ٢٧ .
(٣) ديوانه : ٢٣ .
(٤) ديوانه : ١٥ .
(٥) ديوانه : ق ١٦ ب ٢ .
(٦) المفضليات ٢ : ١٥٧ .

من الأجزاع أسفلَ من نُمَيْلٍ كما رجَّعْتَ بالقلم الكتابا
كتابَ مُحَبِّرٍ هاجٍ بصيرٍ يُنَمِّقُـهُ وحاذَرَ أنْ يُعَابا

وكان من جملة ما يتصف به هذا الخط المتقن استواءُ سطوره وتناسق كلماته وحروفه ، ومن هنا جاء التشبيه به فى الاستقامة والاستواء ، فقد ورد فى الأثر أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يُسوّى الصفوف حتى يدعها مثل القِدْح أو الرقيم[١] ؛ والرقيم هو الكتاب المرقوم ؛ أى كان يفعل فى تسوية الصفوف ما يفعل السهّام فى تقويم قداحه ، أو الكاتب فى تسوية سطوره .

وهذا الضرب من الكتابة المجودة التى يتأنق فيها الكاتب ويجوِّد هى التى رجحنا فى أول هذا الفصل أنها كانت مُعجَمة منقوطة .

وأما الضرب الثانى من الخط فهو الذى يكتبه الكاتب ، وهو فى عجلة من أمره لا يتأنى ولا يتأنق ، وإنما يخط حروفاً وكلمات ليس فيها أثر من جمال ولا من زينة . وهذا الخط يكون فى الغالب غفلاً من النقط والإعجام . وقد عثرتُ على لفظتين كانتا تدلان على هذا الضرب من الخط الغفل غير المتقن ، أولاهما التعريض ، وقد وردت فى بيت للشماخ[٢] :

كما خَطَّ عِبْرانيـةٌ بيمينِه بتَيْماءَ حَبْرٌ ثم عَرَّضَ أسطُرا

وتعريض الخط — كما فى المعاجم — تشبيجه وتعميتهُ وترك تبيين حروفه وعدم تقويمه . واللفظة الثانية التى تدل على هذا الضرب من الخط الغفل السريع الذى لا إتقان فيه هى : المَشْق . وقد وردت فى أخبار عن رجال الصدر الأول ، فقد رُوى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال[٣] : « شرّ الكتابة

---

(١) الفائق : ٣٢٠ — ٣٢١ .
(٢) ديوانه : ٢٦ ، وديوان زهير (ثعلب) : ٥ .
(٣) الصول ، أدب الكتاب : ٥٦ .

المشق، وشرّ القراءة الهذرمة » . وروى ابن سيرين أنه كُرِهَ أن تكتب المصاحف مشقاً ، فلما قيل له : لم كره ذلك ؟ قال « لأن فيه نقصاً ، ألا ترى الألف كيف يغرقها ينبغي أن ترد ! »[١] وذكر ابن السيد البطليوسي أن أهل الأنبار كانوا « يكتبون المشق ، وهو خط فيه خفة . . . ، ولأهل الحيرة خط الجزم وهو خط المصاحف ، وخط أهل الشام : الجليل »[٢] وقال أيضاً[٣] : « فإذا أمد الحروف قيل : مشق مشقاً ويقال : المشق سرعة الكتابة وسرعة الطعن » . وكذلك جاء في المعاجم أن المشق : سرعة الكتابة وفسادها . وهذا الخط المعرض أو المشق هو الخربشة ، قال زيد بن أخزم الطائي : سمعت ابن دؤاد يقول : كان كتاب سفيان مخربشاً[٤] .

---

(١) السجستاني ، المصاحف : ١٣٤ .
(٢) الاقتضاب : ٨٩ .
(٣) المصدر السابق : ٩٤ .
(٤) اللسان (خربش) .